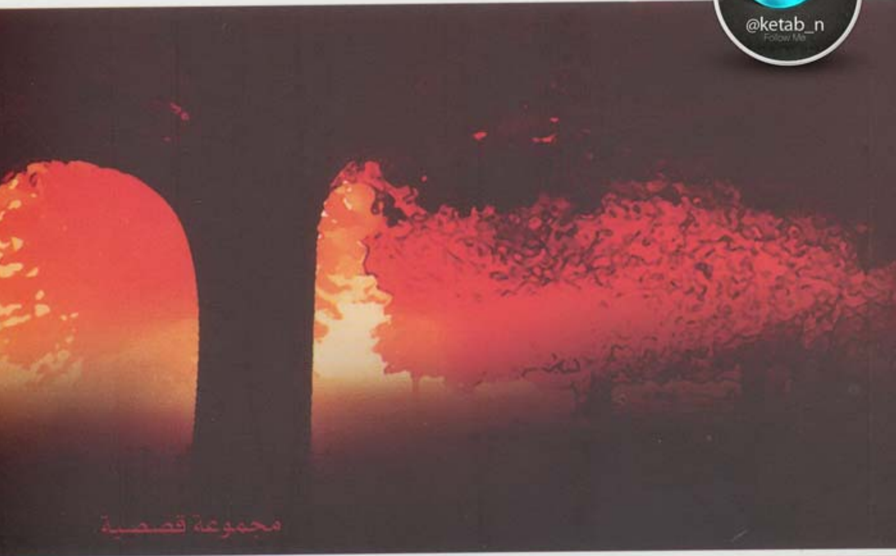
روافد

ظلال وارفة



مجموعة قصصية

إسهام ٢

دكتورة سعاد الناصر (أم سلمى)

روافد

ظـــلال وارفـــة

- مجموعة قصصية -

دكتوره سعاد الناصر
(أم سلمى)

سعاد الناصر (أم سلمى)

من مواليد تطوان بالمغرب سنة 1959، حصلت على دبلوم الدراسات العليا سنة 1992، ودكتوراه الدولة في الآداب سنة 2002، تعمل أستاذة جامعية بكلية الآداب، بتطوان، صدر لها ديوانان شعريان ومجموعة قصصية، إضافة إلى تحقيق للرحلة التي قام بها «محمد الصفار» إلى فرنسا بعنوان: «الرحلة التطاونية إلى الديار الفرنسية» وكتاب «قضية المرأة.. رؤية تأصيلية» و«جماليات الدعاء» الصادرين عن كتاب الأمة بقطر. ترأس تحرير جريدة «ملامح ثقافية».

روافد

نهر متعدد ... متجدد

مشروع فكري وثقافي وأدبي يهدف إلى الإسهام النوعي في إثراء المحيط الفكري والأدبي والثقافي بإصدارات دورية وبرامج تدريبية وفق رؤية وسطية تدرك الواقع وتستشرف المستقبل.

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية

ص.ب: 13 الصفاة - رمز بريدي: 13001 دولة الكويت

الهاتف: 22487310 (965+) - فاكس: 22445465 (965+)

البريد الإلكتروني: rawafed@islam.gov.kw

موقع «روافد»: www.islam.gov.kw/rawafed

الطبعة الأولى - دولة الكويت

يوليو **2007**م / جمادى الثاني **1428** هـ

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الموقع الإلكتروني: **www.islam.gov.kw**

تم الحفظ والتسجيل بمكتبة الكويت الوطنية

رقم الإيداع: **2006 / 536**

ردمك: **99906-90-67-7**

فهرس المحتويات

٧

تقديم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيد المرسلين.

ترتد التجربة الأدبية للأستاذة سعاد الناصر (أم سلمى) إلى أزيد من عقدين من الزمن، فقد عرفها القراء شاعرة وناقدة وقاصة، وظلت ألوان كلماتها تنسج عالماً تتوزعه دلالات وقيم جمالية وحضارية متنوعة ومتداخلة.

ويمكن الانتهاء إلى حكم نقدي ثابت، وهو أنَّ مجموعتها القصصية «ظلال وارفة» تمثل، بحق، خلاصة النضج الفني والدلالي الذي بلغته القاصة، وهذا ما يفسر التنوع الأسلوبي والقيمي الذي تستبطنه قصص المجموعة، فهي لا تسير على وزان منهج واحد في الكتابة القصصية، بل تتداخل فيها عناصر تنتمي إلى الكتابة الواقعية، وأخرى عالقة برحم الكتابة الرمزية. كما أن تخير اللفظ يبلغ عندها أرقى مستويات التناسب والمواءمة بين الحالة النفسية والوجدانية والمفردات المختارة للتعبير عنه، وذلك في شكل يضفي حميمية شديدة ملائمة بين الدلالة والنسق، مما يساعد على تعميق الحدث وجعله منفتحاً على أبعاد إنسانية زاخرة بالمعاني والدلالات، كما أن الصياغة الجملية تتراوح بين الكتابة النثرية المسترسلة والجملة الشعرية الموجزة المكتنزة بروح الاستعارة والمجاز.

وتتوزع ضمائر السرد بين الـ «أنا» بما تحمله من ذاتية واندماج وتوحد والـ «هو» بما يختص به من إيهام بالموضوعية والحياد.

وهذا الحكم يساعد على إيجاد تفسير للتوازن الحاصل، مثلاً، بين قصص: (وجوه، ومقلاة، السفنج، وهروب، وواقع وأحلام،) وبين (أغصان السكن، وتماس، وحينما تتكلم المرآة، وليل الغربة)، إذ تبرز الواقعية، في المجموعة الأولى، بألوانها الصادمة وروحها الاجتماعية في مظاهر الفقر والحرمان والحياة الشاقة لدى فئات

كثيرة من المجتمع، بينما تحضر الرمزية في الأبعاد الدلالية وتوصيف الشخصيات في باقي النصوص السردية، فلا يغدو الحدث والشخصية سوى معبر لأطياف من القيم والرموز والإيحاءات، مثل دلالة العلاقة الوجودية القدرية بين صفحة الورقة البيضاء وسواد مداد القلم في قصة «تماس»، والدلالة المستعصية في «ليل الغربة»، أو تلك الدلالة الرمزية العائمة في ثنايا مقاطع قصة «نوارس اليقين».

ومهما ظهر التباين بين القصص في سماتها الواقعية والرمزية، فإن أسلوب القاصة أضفى عليها جميعها نوعاً من التوازن من خلال توفيقها في تقنية التوزيع والمزج في الصيغة الجملية بين الاسترسال النثري والإيجاز الشعري. ويطمئن الدارس إلى أن مختلف قصص المجموعة صالحة لأن تكون شاهداً على هذا التوازن الأسلوبي، ومن المؤكد أن اجتراح الكاتبة للإبداع الشعري مارس تأثيره «السحري» على الجملة النثرية، فخرجت كأنها أبيات تنتمي إلى حقل الشعر إيقاعاً وصورة وتركيباً، مثل ما يلحظه القارئ في مطلع قصة «نوارس اليقين» في قول الساردة: «التقيته حين كان مزيج من الشغب والتعب يلتف حول قلبي، وأنا ألمس كل يوم التسابق المحموم نحو إفراغ الوجدان من نبضه وروحه. وجوه وألوان يملأها سواد وحزن مثل ليلة غاب فيها نور القمر، وتشكيلات خالية من أي موقف إنساني أو رؤية جمالية تمنح بصيصاً من الأمل أو طعماً للوجود...».

وقد سبق للناقد محمد حسن بريغش أن عرض لهذا الملحظ الأسلوبي في الكتابة القصصية عند «أم سلمى»، واعتبره من العناصر التي تفرض على المتلقي تيقظاً وتنبهاً لمسارات تشكيل الصورة بمختلف خيوطها وألوانها ودلالاتها، يقول عن قصصها: «إنها مليئة بالصور، حتى لتكاد الصورة تدفع الصورة وتتداخل حتى يحار القارئ في متابعة أجزائها لكنها تظل تفسح أمامه أبعاداً ومساحات ملونة شاسعة وأحلاماً وأفكاراً وأحاسيس متوالدة، مما يعطي القصة الواحدة على قصرها، بعداً إنسانياً رائعاً» (مجلة المشكاة المغربية،

عدد: 29، 1998، من مقال: «قراءة في مجموعة أم سلمى القصصية «إيقاعات في قلب الزمن»، ص: 67).

ولابد أن يكون من ضمن أسئلة النقد التي تتيحها المجموعة تلك التي تتعلق بأسرار هذا التوازن بين الواقعية والرمزية، وبين الاسترسال النثري والإيجاز الشعري، والحاصل أن التوازن لايرتبط، فقط، بانشداد الرمزية إلى مقوم الواقعية، أو العكس، وإنما يرجع الأمر، بالأساس، إلى الرؤية الفنية والحضارية لدى القاصة، فالمتأمل في إنتاجها يلحظ أنها تنطلق من فلسفة تؤكد دور الأدب في بناء النفس والمجتمع والقيم، وترفض تحجيمه حتى يغدو مجرد تشكيل فني لحالات وأوجاع وتجارب ومتاهات. إن الأدب، بنظر القاصة، يتقوم بما يقوم به من دور في رصد الآفات وتحليل الظواهر واستشراف المستقبل، دون أن يخل ذلك بطبيعة الأدب الفنية ومستوياته الجمالية، ولعل القراءة الرمزية لقصة «نوارس اليقين» تكشف عن روح تلك الرؤية، فالشخصية الرئيسية في القصة فنانة تشكيلية، تعاين، نفسياً وجمالياً، لحظة الانعتاق من الإبداع الفني الهائم على وجهه في حمأة الطين إلى رحاب الإبداع الهادي إلى سواء السبيل في رعاية الفطرة الإنسانية وتنميتها والارتقاء بها في معارج العطاء والفاعلية والتوجيه.

وباعتماد هذه الرؤية الحضارية لدور الأدب في النفس والمجتمع والقيم، يستطيع القارئ أن يتتبع مسارات نمو الشخصيات وأحداثها ومصائرها داخل مجموعة «ظلال وارفة».

ففي قصة «البحر» معالجة وجدانية لظاهرة هجرة الشباب إلى الضفة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط سراً، وانتهائهم إلى أن يصيروا جثثاً شاهدة على خلل عميق في مختلف بنيات المجتمع، وفي قصة «توبة» شعور فياض برحمة الله وعفوه، وفي قصة «هروب»

نقد للحالة النفسية التي تقود صاحبتها إلى اللجوء إلى عالم السحر لتجاوز الأزمة. وفي قصة «أغصان السكن» تلميح سردي إلى أزمة «الطلاق النفسي» الذي يخيم على الحياة الزوجية بسبب «روتين» العمل والعادة، حيث تتعطل أجهزة الاستقبال النفسية والعاطفية بين الزوجين إن لم يتداركا الموقف الخطير بجهاد متواصل للاهتداء إلى أساليب التجديد المختلفة في الحياة الزوجية.

وفي قصة «ولادة» تذكير بأهمية الابتلاء في حياة الإنسان، ودعوة إلى «تطبيع» العلاقة معه بحثاً عن توازن نفسي مفقود في الثقافة المعاصرة التي تريد أن تعلي من شأن الإحباط والتمرد واليأس، وإدخال الإنسان، بطاقته الحيوية وقدراته الحياتية، في دوامة من الصراع النفسي والاجتماعي الفاقد لمعناه وقيمته.

إن التوازن بين الاسترسال السردي والإيجاز الشعري، واستحضار رسالة الأدب يمثلان مدخلين ثريين لولوج العوالم السردية في «ظلال وارفة»، وهذا لايلغي إمكانية اهتداء القارئ إلى مداخل أخرى بحصافته وأفق انتظاره وأنساقه الثقافية وذوقه الأدبي، وذلك كله مدعاة لاغتناء المجموعة في مد ظلالها الوارفة إلى فضاءات لا حدود لها.

ويسر قطاع الشؤون الثقافية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت أن يقدم للقراء الكرام هذه المجموعة القصصية ضمن إصدار «**إسهام**»، إسهاماً منه في إثراء الساحة الأدبية بالإبداع الهادف والمفيد.

٧

القصة الأولى

رجـــــــوع

رجوع

طعم مدينتي لايبرح حلقي مهما ارتحلت،أو نأيت، ريحها الشرقية الباذخة تعشش داخل عظامي، يأخذني حضورها البهي نحو آفاق شاسعة، تبهرني بعنفوان أبنيتها بعتاقة دروبها، تهزني أحزانها، مسراتها، تبعثرني، تلملمني، رائحة ترابها تتصاعد إلى رأسي فأنتشي، رذاذ بحرها يغسل أعماقي، فأرتد طفلة تلهو على رمال شاطئها، أجمع الأحجار الملونة الجميلة والأصداف الرائعة، أضعها في كؤوس زجاجية، وأطل عليها كل صباح، ولا أرميها إلا إذا جمعت أخرى.

استغرقني الحنين فلم أشعر باقترابه حتى استأذن في الجلوس بجواري. يا الله،، كم الدنيا ضيقة بشساعتها، جلس على المقعد المجاور، سألته عن أحواله في هذه المدينة الضبابية، تأملته، لم ألتق به منذ سنين، تذكرت آخر لقاء معه في مرتيل، حين أقامت الكلية حفلاً لتسليم الجوائز للمتفوقين كان لايستقر في مكان، كتلة من النشاط والحركة، إذا قام بعمل دراسي أو طلابي، أخذه بقوة واستفرغ وسعه فيه، حتى نظن أنه ليس وراءه سوى ذاك العمل، كنا جميعاً نتوقع له مستقبلاً زاهراً، وكنت أشعر بمشاعره تجاهي، لكنه أبداً لم يتجرأ على البوح بها إلا يوم الإعلان عن النتائج النهائية للامتحانات، ذلك اليوم ظل محفوراً في ذاكرتي، كانت الفرحة تضفي عليه بريقاً محبباً، حين أخذ يحدثني في القاعة المكتظة بالطلبة عن تطلعاته وأحلامه، وأرخى الحياء علينا سدوله وهو يبثني إعجابه ورغبته القوية في مشاركتي حياته، واتفقنا على أن يتقدم لخطبتي بمجرد حصوله على وظيفة كيفما كانت ريثما ينهي دراساته العليا. كان واثقاً

مـن تهافت الشركات عليه بمجرد مـا يعلن عن رغبته في العمل عندها، لأنه يمتلك شهادة التفوق في تخصصه، كما يمتلك خبرة لا بأس بها نتيجة عدد من التدريبات التي قام بها دون أجرةٍ في عـدة شركات، انتظرته طويلاً، لكن خبره انقطع عني تماماً، إلى أن زارتني إحدى صاحباتي في الكلية، وأخبرتني أن والده توفي، وأن محاولاتـه فـي حصوله علـى عمل كلها بـاءت بالفشل، وأنه هاجر إلى دولة غربية لإعالة أسرته.

تبادلنـا نظـرات صامتـة، كان شديد الأناقة كمـا عهدته، بدا لـي أطـول مما كنت أعرفه، ربما بسبـب نحافته التي زادت، يده اليســرى تقوم بحـركات عصبية، أخبرني أنه لم يذهب إلى البلد منذ أكثر من خمس سنوات، لأنه لايملك الوقت لذلك، فكل وقته يقضيه فـي دوامة العمل المتواصل، ونتـف العطلة التي يحصل عليها تستولي عليها زوجته البريطانية، حيث تعتقد أنها حق لها وحدهـا تتصرف فيها كيفما تشاء، ريثما ينهي السلف الذي تلفه حول عنقه، وتخنقه به كلما حاول التنفس من سيطرتها، حكى لي بمـرارة كيف التقى بها بعد سلسلة من المعاناة في بلاد الغربة، كانت الأبواب كلها مسدودة في وجهه، إلى أن رآها تتنزه مع كلبها في حديقة عمومية، احتضنت معاناته، أو هكذا خُيّل له، وفرشت له أحلاماً وردية سيعيش فيها بمجرد الارتباط بها. لم يكن يفكر في نفسه، أو في مستقبله الذي ضاع بين لامبالاة المسئولين في بـلاده بالنوابغ مثله، وإنما كان يفكر في بطون كثيرة تنتظر قليلا من الشبع. انجرف معها في ممارسات عديدة لم يكن يتصور أنه يمكن أن يقدم عليها يوماً ما، وقّع على أوراق تؤكد أنه مدين لها بآلاف الدولارات، قالت إنها مسألة شكلية فقط، من أجل موافقة صديقهـا علـى استخدامه، وانغمس في حلقـات خالية من طعم الحياة، كان كثور يدور في ساقية دون نهاية.

قال:

«كنـت أتمنـى لو كنت ثوراً في بلدتي علـى أن أكون أعيش هنا بهـذه الطريقـة، لم يعد عندي إحساس بالفـرق بين شيء وآخر، أصبـح رحيل النهار كرحيل الليـل، وأصبحت أعيش خارج حدود الزمان والمكان».

نظراتـه التي كانت ثابتة مستقرة أصبحت زائغة، تدور ولاتكاد تستقر على شيء، قال:

- «أشتقـت إلى حنان أمي، إلى لهفتها علي، افتقدت الجلوس مـع عائلتـي على مائدة واحـدة، نأكل من صحن واحـد، نتسابق على قطـع اللحم القليلة، نتبادل الضحكات، افتقدت كثيراً زرقة البحـر الذي كنت أطل عليه من نافذة غرفتي، رائحته المختلطة مـع صدى الأذان، افتقدت سريان الحرارة في مشاعري، لم أعد أستطيع الاستمرار في هذا المنفى، تخليت عن كل شيء، وها أنا أحاول استعادة شيء من الصفاء».

كان يتكلـم دون انقطـاع، كأنه منذ مدة هو ينتظر من يفتح في وجهه نوافذ للسمع، ضحك وأضاف بنبرة مرة:

- «كثير من الشباب يحسدونني على ما أنا فيه، لايعرف قيمة الوطن إلا من تغرّب عنه، وذاق طعم المرارة الذي ينفجر من كل زاويـة من زوايا الغربة، ولايجيد الاستمتـاع به إلا من قلبه عليه انفطر».

كنت أستمع إليه، أفهم إحساسه بالغربة، ولو كانت بطعم آخر، فقـد حاولت أن أنتمـي إلى البلد الذي سافـرت إليه، وقلت: إن هذه أرض الله الواسعة، والمهم أن أغرس فيها نباتاً طيباً، ينمو

ويؤتي أكله كل حين، لكن مشاعر الحنين إلى مسقط رأسي، إلى رائحة ترابها، إلى لعب الأطفال في أحيائها، إلى كل شيء فيها، تملك عليّ نفسي، خاصة في أيام العطل، وتغلبني نبضات قلبي التي تتسارع في كل ذكرى من ذكريات أحبابي، كنت قد بدأت في الانزواء إلى داخلي الذي ألجأ إليه كلما أضناني الحنين، لكن صوته المتسارع أعادني إلى الواقع، كان يقول:

- «أرجو ألا أكون قد أثقلت عليك بحديثي».

كان ينظر إلي بحسرة، رأيت في عينيه كلاماً آخر يريد أن يبوح به، ارتبكت، لم أرد إحراجه بذكر مسوغات عن تخلفه، ودعته بعجالة، وحاولت الانصهار وسط الجموع.

القصة الثانية

آه يا رب

أذن يارب

خرج من محل الحلاقة يصفر لحناً شعبياً معروفاً، بعد أن أحال الحلاق شعره إلى دبابيس واقفة. مرت بجانبه فتاة تكاد ترقص في سروالها الجينز المشدود والقميص القصير الذي يكشف عن سرتها المزينة بنجمة حمراء. بادرها بابتسامة وسؤال، وقفت ترد عليه بدلال، ودون أن تشعر، نشل برقة محمولها، ثم ودعها بابتسامة أخرى وكلمة إعجاب هابطة، ولما ابتعدت تمتم:

- «ساقطة مغفلة».

أحس بنظرات تحرق قفاه، التفت، كانت واقفة تودع صاحبتها، نظرت إليه بعتاب، قبل أن تدخل باب العمارة، كان يفتخر بأنه لاتوجد في الحي فتاة تستعصي عليه، وأن خفة يده مثالية، وأنه من المتفوقين في الغش في الامتحان. إلا أن هذه تمنعت عليه، وتشعره دائماً أنه في الطريق الخطأ.

جلس وسط شلة من أصدقائه في مقهى الحي، ارتفع لغطهم، تكاثرت مجاهرتهم، تعالى أذان المغرب، أحس بقلبه يخفق، كان صوت المؤذن شجياً، يكاد سنا تأثيره يخترق القلوب الصدئة. منذ مدة، وهو يشعر بقلبه يتندى كلما سمع الأذان، وكثيراً ما تساءل عن طبيعة إحساسه لو أنصت للقرآن. ضحك بصوت مرتفع كأنه يطرد هذا الخاطر، حاول الانخراط في رواية المشاهد العارية والنكت البذيئة، شعر بالملل، بالرغبة في التقيؤ، بلع ريقه، صعد طعم مر إلى لسانه، سمع صديقه الجالس إلى جواره يقول له:

- «ماذا بك، ألن تسمعنا صوتك هذا المساء؟ الظاهر أنك مستغرق في التخطيط للإيقاع بإحداهن».

لـم يـرد عليه، تراءت لـه كشمس وسط ظلمـة قاتمة، الخمار الأسـود يحتضن رأسها ووجهها، وينسـدل على صدرها يغطيه، تابع مخيلته عساها تسعفـه في استشفاف ماوراء لباسها، ترتد إليه مخيلته حسيرة، اختزق صوتها أذنه:

- « .. الشبـاب أصبح بالوناً فارغـاً من أي محتوى، اهتماماته تافهـة، رغباتـه مدنسـة، لاهـدف لـه فـي هـذه الحيـاة سوى العبث..».

لـم يستطع ذلك اليوم أن يتابع كلامها، فانسحب، لكن نبراتها ظلت متغلغلة في أعماقه، تطفو إلى السطح حيناً بعد أن استحضر كلماتهـا حين سألها عن رأيها في صوته، في الحفلة التي شارك فيها بالغناء بعد ذلك:

- «والله بالقرآن أجمل».

لـم يستطع ذلك اليوم أن يستوعب كلامها، فنظر إليها ببلاهة وانصرف.

تململ فـي مقعده كأنه جالس على رزمة مـن مسامير، هب واقفاً، خرج إلى الشارع، داعب الهواء وجهه، شعر برغبة شديدة فـي الاغتسـال، لم تكـن أمه موجـودة في البيـت كعادتها، وجد أختـه جالسة أمام الإنترنت مستغرقة فـي الدردشة الكتابية مع أحدهـم. اغتسل، أرجع شعـره لطبيعته، جلس أمـام التلفزيون يبحـث عـن قناة يمكن أن تعجبه، لم يكن يـدري عمّ يبحث، لكنه استمـر في البحث، وجد قناة تبث آيـات من القرآن، تسمر أمام المقرئ سمعه يقول:

﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾.

كان صـوت المقرئ ندياً، يسري في القلوب الظامئة فينعشها، خفـق قلبه بشدة، اهتزت أعماقـه لعمق الكلمات وجرسها، حزن شديـد سيطر عليه، لأنه رغـم تأثره لم يفهم المعاني، كان يحس أن الكلام موجه إليه، وأن الله تعالى يخاطبه، لم يعرف ماذا يقول له عز وجل أسرع إلى المعجم يحاول شرح الكلمات الرائعة التي سمعهـا «أمـا آن..»، توقف كثيراً عنـد المعاني والدلالات،هتفت روحه: «آن يارب، آن يارب» كانت الدموع تنهمر على خديه، تقطر فـي أعماقه قطرة فقطرة، السؤال يكبـر فيه ويكبر: «هل هناك أمل في النجاة، في الخروج من الزيف الذي أعيش فيه؟؟ يارب، يـارب» فتش عن القرآن الكريم، وجده بين الكتب المجلدة، كانت أمـه تضعه للزينـة والتباهي في المكتبة الصغيـرة المنزوية في ركن الغرفة، أخذه، نفض الغبار عنه، احتضنه، بدأ يقرأ فيه، أحس بسكينة واطمئنان في صدره، تشبث به بقوة، وقرر الانخراط في الحياة.

فـي الصباح كان واقفاً ينتظر الحافلـة التي ستقله إلى كليته، وجدهـا تنتظـر أيضاً، حين اقترب منها، حدجتـه بنظرة راضية وقالت: «الله المستعان».

٧

القصة الثالثة

البحر

البحر

-1-

تطلع بعينين حالمتين إلى البحر، تمتد أمامه زرقة منبسطة تلتقي بحمرة متناثرة، فيشكلان لوحة طبيعية رائعة، أصاغ السمع إلى الهدير الخافت الممتد منه إلى شرايينه، ثمة زورق يستعد لرحلة ليلية في صيد السمك، قال له صديقه:

- «ألن تأتي معنا الليلة أيضاً».

أجابه دون مبالاة:

- «لا أنْسى».

أطلق صديقه شتيمة بذيئة نحوه وتابع عمله، لم يلتفت إليه، أشعل لفافة التبغ الأخيرة التي في حوزته، وظل يرنو إلى البحر حالماً. جذب آخر نفس فيها ورماها. أخذ حجراً ورماه بعيداً، فأحدث دوائر ضاقت حتى تلاشت، انثالت عليه ذكريات من طفولته، كانت أمه توقظه مع الفجر، ليذهب إلى الشاطئ مع إخوته ومجموعة من أطفال القرية لانتظار سفن الصيد التي خرج بها آباؤهم، فتخرج السفن، ويُفرز السمك، ويذهب كل واحد إلى شأنه، ويظل هو في البحر، يضمه بصدره، ويدخل معه في علاقة حميمية خاصة، حوارية أو صامتة، إلى أن تغيب الشمس،وتخرج السفن إلى عرضه مرة أخرى، حتى أطلق عليه أهله وأصحابه عاشق البحر، وهذه العلاقة الخاصة كثيراً ما كانت تجعله يهرب من الكُتّاب، بل إن اللقمة كان يخطفها خطفاً ليجري إلى حضن البحر صيفاً وربيعاً، ويتأمله ويناجيه خريفاً

وشتاء. وما إن أكمل السابعة من عمره حتى بدأ والده يخرجه معه إلى الصيد، فيساعده بهمة ونشاط، ولم تفتر علاقته معه إلا بعد أن وضع قدميه على أعتاب الشباب، وبدأت مشاعر غامضة تقتحم عليه وحدته مع البحر، خاصة حين تعلق قلبه بجارته الجميلة، وحين أصبح يطل على الجميلات في الشاشة الصغيرة الموجودة في المقهى.

لما صعد اللون الرمادي في وجه الحمرة، يمم وجهه شطر المقهى الوحيد المطل على البحر، لم يجد مقعداً فارغاً، أخذ حجراً وجلس عليه بين يدي التلفزيون، في انتظار موعده مع الرجل الذي وعده بترحيله إلى الضفة الأخرى من البحر، بعد أن سلمه كل النقود التي ادخرها لزواجه من جارته، منذ أن فتح المقهى أبوابه ورجال القرية شباباً وشيوخاً يسهرون فيها، يلعبون الرَّند أو يحملقون في الشاشة، فقلّ الخروج إلى البحر، ولم يعد يواظب عليه إلا المواظبون على الصلاة، كما لم يعد أحد يعرف عن غيره شيئاً، فقل الاهتمام ببعضهم البعض، وفي ذلك اليوم لم يعرف أحد هل اتصل صاحبنا بصاحبه أم لا.

-2-

انصرمت الأيام، والشاب غائب عن القرية، قيل إن عروسة البحر أخذته معها إلى أعماق البحر بعد أن عشقته منذ أن كان طفلاً، وقيل غرق في البحر وسيظهر قريباً، وقيل هناك من رآه في الضفة الأخرى متأبطاً ذراع شقراء جميلة، وقال إمام المسجد:

- «تعالوا نقرأ عليه القرآن، ونهديه له حياً كان أو ميتاً، واحذروا الغرباء، ولا تخالطوهم إلا بالمعروف الواضح».

وفي كل مساء، تختفي الشمس في الأفق الوردي، باسطة للتواصل مع الشاطئ جسراً بلورياً يتلألأ على صفحة البحر.

٧

القصة الرابعة

حين تزهر أوراق السفر

تطلعت إلى السماء، بدت لي النجوم المضيئة بعيدة، نائية خلف نواميس أبدية ترتشف برقاً، وتضعني وجهاً لوجه مع البكاء، لم تدهشني الدموع التي انهمرت شلالاً، تحاول غسل الأحزان المتراكمة، فمنذ أن اعتراني الفضول وشدني إلى تفاصيل الحياة، وأنا أدمن البكاء... أحياناً يأتيني على شكل دموع نسائية تستعين بتواطؤٍ أنثوي لتنبت الأوجاع المتناثرة على صفحات الذات، وتسقي تمرداً أخضر حتى يزدهر أكثر من قوس قزح. فكرت أن إحساس الشاعر الجاهلي بالليل مصيب:

وليل كموج البحر أرخى سدوله   عليّ بأنواع الهموم ليبتلي

ليبتلي...

فكلني يا أعز حبيب لهمٍّ أقاسيه سريع الكواكب لأتربع في عينيك، وأسند رأسي المحموم في صدرك.

غزتني ابتسامة حزينة، فالشعر يداهمني بحزمات من الضوء، ويكاد يغويني لأهيم في الملكوت الأرجواني، وأنا وحيدة، تُلهب الآلام مرمى بصري، وتستبيح ذاتي في مواسم الجفاف.

لم يبق على أذان الفجر سوى لحظات حين سمعته يخرج من غرفته بهدوء، شعرت لحظتها كم سأفتقد هدوءه.. كم سأفتقد ابتسامته الحيية التي لاتفارق وجهه.

سأفتقد ذلك البوح الذي يختزله أياماً في صدره قبل أن يتدفق بغزارة، فأتلقاه في صدري، وأعيش معه همومه ومشكلاته، وأغوص

وراء آمالــه وأحلامــه.. تساءلــت بمرارة: هل ستظـل تستحضر لحظـات البـوح والتدفق في غربتك ياحبيبـي؟ هل ستكتمها في نفسك حتى ترجع إليّ؟...

تنـاول فطوره بصمت متحاشيـاً النظر إلي، ماذا سيحل بي يا أعز حبيب؟

ضممتــه إلى صدري بقــوة وكأني لاأريد تركــه أبداً... دفنت رأســي في عنقه، ووددت لو توقف الزمــن وأنت بين أحضاني يا أعــز حبيب لأشم بقايا من طفولتك، وأتتبع مجرى الحليب الذي ألقمتـك إياه ليسلمني إلى مرســى الرجولة في عينيك.. تشدني من كتفي وتقول:

- «أمّــي ادعي لي، فهذا أكثر مـا أحتاج إليه في هذا الوقت.. سأشتاق إلَيك يا أمي..»

ورحلت، سافــرت وتركت حضوراً كالشعاع في جيد القصيدة، وأدركت أن مفردة الشوق لاتستوعب مثقال ذرة مما أشعر به في غيابـك.. الغيــاب.. هل أنــت حقاً غائب؟ وهــذه الومضات التي تعانـق رحاب القلب، وتغزو الوجــود، وتخفض لي جناح الذل من الرحمــة حتــى تمنحني السكينــة.. وأعرف أنك تحــاول أن تجد نفســك في هذا الفضاء الذي لايحمل أي بشائر.. أن تنمو نخلة متسامقــة في أفــق الكرامة.. تذكرت كلامه حيــن تسلم تأشيرة السفر وقد لاحظ تجهمي وكآبتي:

- «أمــي لست مسافراً من أجل المتعة أو اللعب، تذكري دائماً أنني ذاهب من أجل العلم، ألا تعتبرين هذا فرضاً وجهاداً؟؟».

أجـل يابنــي، فطلب العلـم بإخلاص نوع من الجهـاد، شعرت

بالارتبـاك والخجل يلفان روحي وجسـدي.. الجهاد.. هل أرتفع إلى مرتبة الشهداء؟؟... حلم لا يبدأ بالتثاقل والقعود أو باللهاث وراء كل سـراب، ولايتحقـق بالتمنيات، أعرف يابنـي أنه لم يبق أمامنا من طريق سوى العلم ثم العلم، فهذا زمن الإعصار واللعب في هاوية الدمار، ولن نستطيع الصمود إلا بثمار «اقرأ» ثم «اقرأ» وإنـي أعرف أيضاً يابني أن رحم هـذه الأمة ولود، وهي ما تزال تلد من يتصدى لكل إعصار، فيستحيل حبا ورحمة، هل يهم بعد هذا أن نفترق؟؟..

انتبهت إلى نداء طفلي الصغير:

- «هيه أمي، ألا تسمعينني؟»

احتضنته بشدة وقلت له:

- «أجـل يابني أسمعك، وأسمع همسـات الشوق إلى مواصلة الطريق».

٧

القصة الخامسة

توبة

توبة

تنسحب أشعة القمر الباهتة من الأشجار المتناثرة على مرمى البصر، يظل النور منتشراً، يوشّح صوت المؤذن السكون، يعلو قوياً واضحاً، أصوات الديكة تُكبّر في تناغم، تتقلب في فراشها، أذرع الدفء تحيط جسدها بإغراء، يتسلل الهواء الربيعي من النافذة المفتوحة على الحقل، تتنشقه، يتواطأ مع الدفء، يكمل المؤذن الأذان، تحرك شفتيها بالدعاء، تسمع نداء يتصاعد من أعماقها، تختلط رائحته بالرائحة المحيطة بها، تفر بقايا النوم من أهدابها، تحس بانتشاء، تقفز خارجة إلى البئر لتتوضأ، وجدت صاحبتها سبقتها وأنهت وضوءها، بادرتها قائلة بمرح:

- «هيا لم يعد متسع من الوقت»

تنفرد بربها في ركعتي الفجر، تتكشف طاقات النور والطهارة في أعماقها، تمسح غباراً ما زال متراكماً. حين انتهت، وجدت الصف متراصاً، كتفا الأم ملتصقتان بابنتيها، تلتحق بهن، تكاد تلمس أحاسيس الطمأنينة والسلام بيديها.

تترقرق الكلمات القرآنية جداول تسقي جفاف الزمن القاسي، تركع، سبوح.. قدوس.. رب.. تسجد، سبحان ربي الأعلى.. قشعريرة منعشة تسري في كيانها كله، تتبلل الأرض بدموعها، تدعو، تغتسل، ترجو، تحس بنفسها خفيفة، تطير وتطير...

دعتها صاحبتها لقضاء أيام معها في قريتها المطلة على البحر. امتنعت في البداية، قالت لها إنها مشتاقة إلى التلفزيون والسهرات العائلية الليلية التي تطول إلى أن تشرق الشمس،

وأنهـا في حاجة إلى نسيان إحباطهـا، وفشلها في النجاح، وفي الحـب، وفـي المصالحة مـع نفسها ومع من حولهـا، في حاجة إلـى الغرق أكثر في محيط عائلتها، والدها رجل أعمال وتجارة، ويقيـم بين الفترة والأخرى سهرات يبرم فيها الصفقات، برعاية أمهـا وقطـرات أنوثتها التي توزعها علـى الجميع بالتساوي، في كل سهـرة معهمـا، كانت أمها قد علمتها الرقص، وكانت تطلب منها أن تتفنن فيه كل ليلة معها، في البداية أحست بالقرف حين تسلطـت نظـرات الساهرين على جسدها الـذي يتلوى كراقصة محترفة، لكن بعد أن ذاقت أول كأس، تعلمت كيف تتجاهلهم، أو إذا أعجبها أحدهم، بدأت تعرف كيف تجرجره طول الليلة وراءها. كانـت وحيـدة والديها، وكانـا يغرقانها في التـرف، في الدلال، طلباتهـا أوامر، أصبحت تأتي بأصحابها إذا أرادت السهر، يحوم الجميـع حولها، ومع كل هذا كانت تحـس بالضياع بعدم الأمان، خاصـة بعد أن سلمـت جسدها لمترف يتصابى، لم تفطن لذلك إلا بعـد أن طارت أثـر الخمرة من رأسها، أحست من بعد بمزيد مـن القـرف والقلـق، أرادت أن تبتعد عن هذا الجـو بانغماسها فـي الدراسة الجامعيـة، إلا أن معظم أصدقائها التحقوا بالكلية نفسها، فانجرفت مع ممارسات أخرى أضافت إلى رصيدها من القلق والقرف والتوتر أضعافاً، سكنت مع صاحبتها الشهر الأخير من هذه السنة الجامعية في الحي الجامعي، بعد أن تشاجرت مع صاحب البيت الذي كانت تقيم فيه وطردها.

إلحاح صاحبتها، ومعاملتها الطيبة معها، رغم الاستعلاء الذي واجهتها به حيـن انتقلت للعيش معها في الغرفة نفسها حفزاها على هذه الزيارة، لم تندم، فمنذ أن وطئت قدماها صحن البيت المتواضـع، وطالعتها ابتسامة والـدة صاحبتها المرحبة أحست أنهـا ستمضـي أياماً طيبة، واظبت على الصـلاة في أوقاتها مع

العائلـة الصغيرة، كما واظبـت على الجلسات العائلية بعد صلاة المغـرب مباشرة، يجلسون متحلقين حـول الطيفور، يتسامرون، الأب يحكي عن ذكرياته في مقاومة الاستعمار بافتخار واعتزاز، يذكر أنه رغم حداثة سنه كان يساعد والده وجده، يقول كل مرة:

- «مات والدي شهيداً، لم يتلق جدي فيه العزاء، قال يوم دفنه: عزائـي الوحيـد هو خـروج الاستعمار، حين بكتـه أمي قال لها: بـدل البكاء عليه، ارعي ولده واحرصـي على تربيته، وعلى عدم التفريط في شبر من أرضه».

وكانـت الأم تحكـي تفاصيـل محببـة عـن حيـاة القرية، عن مواقف حاسمة وقفتها في تربية بناتها، ويدخلون في حوار شيق ومتشعـب، إلى أن يسمعـوا أذان العشاء، فيتفرق الجميع، ليلتقي مرة أخرى في الصلاة.

كانـت تتأمل حياتها الماضية تحت الشجـرة الكبيرة المتدلية الأغصـان علـى باحـة المنزل الأماميـة، ترفـرف حولها كلمات صاحبتها: «لاتطوي الصفحة قبل تنظيفها»

كانت الحمرة على مرمى البصر تغطي الأفق، والنوارس تحوم فوق البحر الممتد أمامها، تشاهد أفواجاً من الصيادين يتجهون بقواربهم نحو الشاطئ، تصلها أصواتهم الصاخبة، المتعبة، تتناثر الكلمات، الضحكات، النـداءات، تصلها المعاني بعيدة متقطعة: «الرزق.. اليوم»، «الحمد لله»، «عشرة» «تعبت»، «لن أبيع بأقل»

تتأمـل ضـوء النهار المنتشـر حولها، لم تعرف هـذه السكينة وهذا الهدوء من قبل، تهمس بداخلها: «حياة بسيطة، لكنها غنية بالقناعـة والأمل، أرجـو ألا تتشوه تطلعاتهـم..» تراقب الشمس المتصاعـدة من البحر، زورق وحيد يتمايل على سطحه، ونورس

واقف على مجدافه، ذرات متلألئة تحيل الصورة إلى لوحة رائعة متناغمة، متوحدة مع الكون، السكون المتماوج يضفي عليها صفاء عميقاً.

أحست أنها جزء من تلك اللوحة، تنخرط في تفاصيلها، فطيلة الأيام العشرة التي أمضتها مع صاحبتها في هذه القرية وهي تحاول إعادة ترتيب حياتها، استرجاع الصفاء الطفولي الذي تناثر بين رغبات متمردة، أو شهوات مسيطرة، هتفت تناجي ربها في تضرع:

«أحمدك يا إلهي إذ أذقتني حلاوة الإيمان بك، بعد أن كانت الدنيا قد سدت أبوابها في وجهي، لكم أنت رحيم ياربي، هيأت لي سبيل الرجوع إليك من غير حول مني ولاقوة، سوى عطفك ورحمتك، فأتمم علي يارب نعمتك وألهمني الصواب في كل أعمالي، فما لي سواك يأخذ بيدي، أعني على المضي في طريق رضاك..»

كانت الدموع تسيل من عينيها على وجهها، تحس بها تتساقط دافئة في أعماقها، تغسل هموماً وأوجاعاً كانت قد بدأت في التناسل، الكلمات البسيطة ترفرف حولها كفراشات ربيعية، تلون وجودها الجديد بألوان نقية مشعة، تتنبه على حركات ضاجة من حولها، أصوات متداخلة تردد عبارات الترحيب، تفاجأت بوالديها يقفان أمامها، تسمرت في مكانها تتطلع نحوهما بذهول: كيف وصلا إلى هذا المكان؟؟

تقدمت نحوها والدتها مرددة «اشتقنا إليك»

تحتضنها، تشعر بدفء أمومتها الغائبة عنها منذ زمن طويل، تضمها بشوق كما لم تفعل منذ مدة بعيدة، تتشبث بها، تحس

بكتفيها العاريتين، يتشنج جسدها، يركبها الحياء من عري والدتها، تتطلع إلى وجـه صاحبتها المشرق، ابتسامتها الهادئة تقول لها: «هذه بداية الطريـق، فاصمدي، وهذه مهمتك فاثبتي».. تبادلها ابتسامتها، تهمس في أذن والدتها: «وأنا أيضاً اشتقت إليكما» ثم ترتمي في حضن والدها بعد أن أثبتت الغطاء على رأسها.

٧

القصة السادسة

رؤى متنوعة

-1-

فركت عيني، نظرت حولي، بصيص من الضوء يتسرب من شق الباب، نهضت من الفراش، لامست رجلي بلاط الأرض البارد، ارتعشت، خرجت على أطراف أصابعي إلى خارج الغرفة، ضوء البهو يوحي باليقظة، الباب أمامي مغلق، تسللت تأوهات خافتة حركات قلقة تنبعث خافتة، أحس برغبة في رفع صوتي بالبكاء، انفتح الباب بعنف، صرخ أبي في وجهي:

- لم أنت صاحية؟ هيا إلى فراشك.

لمحت أمي من الباب الموارب تذرع الغرفة بتثاقل، آثار الإعياء بادية على وجهها، تعلقت عيناي بعينيها الواسعتين، سحبتهما مني، وددت لو جريت للارتماء في حضنها، ومسح وجهها وجبينها، منذ أن ازداد انتفاخ بطنها وهي تتجنب احتضاني، كانت تقول لي حين أتعلق بعنقها:

- «إنك تؤلمينني»،

كانت مشاعر الحزن والغضب تتملكني بعنف، فأصرخ:

- أمي.. إني أريدك لي وحدي..

كانت تبتسم وتقول:

- هل بدأت بالغيرة منذ الآن؟؟

صيحة والدي الثانية أجْرَتْ قدمي، قفزت نحو الفراش، آهات تتعالى من غرفة أمي، تشق صدري، أسحب الغطاء على جسدي، تخرج الكلمات من فمي «حين أكبر، لن أحمل أبداً ولن أنجب»

أتذكر قولها البارحة حين انتابتها الآلام في ظهرها من جديد:

- «الأمومة غالية ياحبيبتي، وهذا جزء بسيط منها»

قلت لها:

- «لكني سمعت صديقتي في المدرسة تقول إن أمها أنجبت دون ألم»

ردت علي وعضلات وجهها تتقلص:

- «ممكن، لكني أريد أن يأجرني الله على ألمي، وأن تزداد قيمة المولود عندي أكثر».

ظللت أتقلب في الفراش، أصغي للحركات والآهات، لم أشعر أنني نمت إلى أن فطنت بيد تهزني برفق:

- «انهضي يا ابنتي، سيفوتك موعد المدرسة»

كانت جدتي توقظني، تطلعت نحوها باستغراب وسألت:

- أين أمي؟

ردت جدتي:

- «إنها في المستشفى تلد أخاً لك»

أجبت بغضب:

- «لكني لا أريد»

ابتسمت وقالت:

- ليس بإرادتك يا ابنتي، بل بإرادة الله.

صرخت بغضب:

- إنكـم جميعــاً لا تحبونني، حتى أمي، إنــه يرفس برجله في بطنها، يؤلمها، ومع ذلك ستأتي به.

قالت جدتي وهي تعينني على النهوض:

- «لاشك أنه سيأتيك بهدية كبرى»

قلت:

- هذا ما يقول أبي، قولي لي جدتي، هل الهدية في بطن أمي أيضاً؟؟

-2-

لــم أكن قد أنهيت بعد إعــداد الحقيبة التي سأصطحبها معي إلــى المستشفى، سيــاط الألم تزداد في ظهــري وأسفل بطني، كنــت أشعر بقلقــه الزائد، أتحمل كي لا يــزداد توتره. كان دائماً يتذكــر والدته، ويتحسر على عدم تمكنه من رفقتها بسبب موتها المبكر، وكلما أتينا على ذكرها، كان يعيد سرد لحظاتها الأخيرة. كان الوضــع عادياً، لكنَّ نزيفاً حــاداً انتابها بعد أن وضعت أخته الصغيــرة، وما كادوا يسرعون بها إلــى المستشفى حتى أسلمت

الـروح بيـن ذراعي زوجهـا، وتركت أولادها له ليقـوم بدور الأب والأم معـاً، دون أن يفكـرٍ فـي الـزواج مرة أخـرى، انطلقت آهة خافتة مني، جلس متأهباً وسط الفراش وسأل:

- «هل نذهب إلى المستشفى»

أجبت ببطء:

- «ليس بعد، حاول أن تنام قليلاً لترتاح»

قال:

- «ارتاحي أنت واتركي لي أمر الحقيبة»

قلت والتشنجات تزداد حدة:

- «لن تعرف ما سأحتاجه أو ما سيحتاج الجنين»

لـم يرد علـي، قام، فتح الباب بعنف، وخـرج من الغرفة، وجد آلاء واقفة متسمرة أمام غرفتها، صرخ في وجهها:

- لم أنت صاحية؟ هيا إلى فراشك.

لم تنتبه إلي صرخته، ظلت عيناها متعلقتين بعيني، سحبتهما منهـا، كانت الآلام تضرب بسياطهـا، كنت أعرف أنها تحتاج إلى حضنـي، لكني لا أطيـق نفسي، وأحس أن جسمـي كله ينتفض، وأني بحاجـة إلى المشي عساه يخفـف التشنجات، رأيتها تقفز داخـل غرفتها مع صيحـة والدها الثانية. جاءت والدتي مسرعة من المطبخ متسائلة:

- هل ازداد الطلق؟

أجبت بتعب:

- أعتقد ذلك

كانت في يدها بضع ثمرات، قدمتها إلي قائلة:

- «هيا كلي هذه الثمرات وتوكلي على الله»

أعانتني على لبس الجلباب، وأكملت إعداد الحقيبة، كانت تعرف سبب قلق زوجي وتوتر أعصابه، نظرت إليه وقالت:

- «نحن جميعاً في يد الله يا ولدي»

انطلقت الآهات متسارعة مني مع ازدياد التشنجات، أسرع نحوي يسندني، قلت لوالدتي والدموع تترقرق في عيني:

- «لن أوصيك بآلاء يا أمي»

قالت:

- تعلمين أنها في عيني

خرجت مع زوجي، كان صامتاً، حين وصلنا المستشفى دخلت مباشرة إلى غرفة الولادة، خرجت وفي حضني ولدي، أسرع إلي في لهفة:

- هل أنت بخير؟ ألا تشعرين بشيء؟

كنت متعبة لكن سعيدة بمرور كل شيء على ما يرام، أمسك بيدي، كانت يده باردة، قلت:

- إن الله معنا

تعالى صراخ المولود، كأنه يحتج على انصراف الاهتمام عنه، ضممته إلى صدري، خفت صراخه ثم نام، قلت لزوجي:

- اذهب إلى البيت واسترح قليلاً، وفكر في اسم للولد

أتت أمي، أسرعت تحتضنني والدموع تنساب من عينيها:

- الحمدلله على سلامتك يا ابنتي

تعالى صراخ المولود مرة أخرى، قالت:

- هيا، ألقميه، ثديك، فالقطرات الأولى مهمة.

أخذته بين يدي، حاول إدخال حلمة ثديي في فمه، ازداد صراخه، هز رأسه يميناً وشمالاً، ازددت تشبثاً به، ضممته إلى صدري أكثر، أحسست بضربات قلبه تهدأ شيئاً فشيئاً، أعانتني أمي على إدخال الحلمة في فمه، سالت القطرات بين شفتيه، هدأ رأسه، قلت:

- الحمد لله، دخل الحليب في فمه

تشبثت شفتاه بالحلمة، أخذ يمتصها بنهم حتى نام.

-3-

كانت تعد حقيبتها حين ارتفع صراخها، يا الله، هل حان وقت الولادة؟؟، جلست وسط الفراش مترقباً، سألتها:

- هل نذهب إلى المستشفى؟

كنت ألاحظ تلونات وجهها، لا شك أنها تخفي عني آلامها، تدرك مدى قلقي وخوفي عليها، أجابت وآثار التشنج باد عليها:

- ليس بعد، حاول أن تنام قليلاً لترتاح

طلبت منها أن تترك لي أمر الحقيبة، لكنها رفضت، تريد دائماً فعل كل شيء بنفسها، هكذا كانت والدتي يرحمها الله، لا تترك لأي كائن الاقتراب من الأعمال التي تعتقد أنها خاصة بها، انتابني خوف شديد، لم أستطع البقاء جالساً، قمت، خرجت من الغرفة كي لا تلاحظ زوجتي قلقي، وجدت آلاء واقفة أمام غرفتها، صرخت في وجهها، كنت أريد أن أطفئ اشتعال مشاعري بأي شيء، ولو بالصراخ، رجعت إلى غرفة النوم، أحسست أن آلامها قد زادت، كانت والدتها تعينها، همست في أذني بشيء لم أفهم معناه، ثم ذهبنا إلى المستشفى.

أُدخلت غرفة الولادة بمجرد وصولنا، كانت في داخلي مشاعر متناقضة، أخذت أذرع المكان جيئة وذهاباً، أحاول التقاط صوتها، لم أعد أسمع شيئاً، أسترق السمع من الباب، يخيل إلي أني أسمع آهاتها وصرخاتها، أعاود المشي من جديد، وأنا أتمتم ببعض الدعاء. مع خيوط الفجر الأولى ارتفع صراخ طفلي الصغير، كانت تحتضنه في حب، في وجهها مزيج من الفرح والتعب، أردت الاطمئنان عليها، احتضنت يدها، كانت دافئة قالت:

- «إن الله معنا»

ارتفع صراخ الطفل مرة أخرى، طلبت مني أن أذهب إلى البيت، نظرت إليها طويلاً وقلت:

- «نعم إن الله معنا ولا مسوغ لأي قلق»

-4-

لايريد أن يخرج، يزم شفتيه، يتكور على نفسه أكثر، سياط من الألـم تمزق جسمه كله، يزداد شعوره بالاختناق، كان يسبح بأمن واطمئنــان، إلى أن أحســ برأسه يتدحرج نحـو الأسفل، والآلام تنتشــر حولــه، يتزحلق خارجــاً، تتلقفــه الأذرع، يصطدم جسده بلسعات باردة، يشهـق، يطلق أولى صرخاته، يفقد الدفء لوهلة طالــت، فيشتد بكاؤه، محاولات متتالية لإدخال الحلمة إلى فمه، يهــز رأسه يميناً وشمالاً رافضاً، تزداد اليدين تشبثاً به، خفقات معتــادة تهدهده، ينصــت إلى تناغمها، يهدأ، تدخــل الحلمة إلى فمــه عنــوة، يذوقها، تتشبث شفتيه بهــا، يمتص رحيقها، يغمض عينيه وينام.

٧

القصة السابعة

لقاء قريب

لقاء قريب

أقاســي اللحظات التي لا تمــر، وحيدة، أتوهــم أشياء منفلتة مــن لظى الزمن، بشكل دائري، تلتــف حولي، تقتحمني كعاصفة فــي ليل ربيعي، عبثاً أحاول الهــروب، السماء ممتدة على مرمى بصــري، تطل منهــا نجمات، ترسل دفئها، أشعــر بالتوحد معها، أسائلهــا : «أحقــاً مــات؟». يتمطــط الســؤال في حلقــي، أشرق بالبــكاء، لــم أصدق بعد أننــي لن أتملى طلعتــه الملائكية، لكني رأيتهــم يخرجون به، أخــويّ وزوجي وعمّاي ومجموعة أخرى من الإخــوة والأحبــاب والأقارب، رأيتهم يتسابقــون إلى حمل نعشه، أومــات حقاً؟؟.. هل تحول إلــى فعل ماض؟؟ هل غابت ابتسامته المتلألئــة دوماً على وجهه بين طيات التــراب؟؟... قطعا ليست هــي النهاية، فمــا زالت صدى كلماته ترن فــي أعماقي، لمسات يده تمسد شعري كلما قبلت يده، تقطيبة جبينه كلما انفلت مني شغبــي.. منــه تعلمت أبجدية الحروف، تعلمــت منه كيف أمسك فانوســ المعرفة، أضيء به متاهات الدروب التي مرغمة أمضي فيها.

أخلــل أصابعــي في شعري كما كان يفعل حين يفرح بي، تنفتح الذاكرة دفعة واحدة، فإذا المسافة بيني وبينه تكاد تنمحي، كان قليــل الــكلام، لكنه كان مستمعاً جيداً، يصغــي إلى محدثه حتى تظــن أنــه لا يشغله سوى الكلام الذي يسمعــه، ما كنت أراه قبل مرضــه إلا ممســكاً بكتــاب أو جريدة، يأتيني ما حــدث له مرة، كأنــه حصــل البارحة، خرجــتُ ذاك اليــوم وراءه مسرعة لأذكره بطلــب أمــي، كان ممسكاً بجريــدة، منهمكاً فــي قراءتها، هالني أن أرى سيــارة تنطلق خلفه، انطلقت صيحتي «بااا» متزامنة مع

صوت الفرامل تحتك بالأرض، التفت بهدوء يستطلع ما يجري، اعتذر لصاحب السيارة بابتسامة امتصت غضبه، وجرى نحوي يحضنني بعدما رآني متسمرة في مكاني من شدة الخوف. أحس بارتجافه في قدمي، وقطرات من العرق البارد تعلو جبيني، مثلما حدث لي في تلك اللحظة.

أمسح وجهي بيدي المرتعشة. تتراءى لي لحظة أخرى، تؤجج شوقي إلى حنانه، كنت في لباس عرسي، جالسة في المقعد الكبير، غارقة في خجلي وفرحي، أمامي في المقعد الآخر عريسي، ثلة من الأهل والأحباب ينتظرون خروجي رفقته، تتعالى الزغاريد، أمي تتابعني بعينيها، تبكي بصمت، أمسك يديها برهة وهمس في أذنها، ابتسمت، اقترب مني، وضع يده فوق جبيني، كانت ترتعش وهو يعوذني بصوت منخفض، قبلني فوق جبيني، كانت الدموع تنساب فوق وجنتي، همس قائلاً:

- ستفسدين زينة عينيك الجميلتين، وسيحتج عريسك»

ابتسمت بخجل، أخذ يدي ووضعها بين يدي عريسي، قال له:

- إنها أمانة غالية، حافظ عليها يا ولدي

لم أشعر بزوجي يقترب حتى احتضن رأسي بين يديه وهمس:

أما زلت صاحية يا حبيبتي

أجيب بصوت خافت:

- لا أظن أن النوم سيأتيني الليلة أيضاً

يقول بحنو:

- سيأتي حبيبتي لو استسلمت لقضاء اللّه

يشعرني الحديث بالتعب، بمزيد من الحزن، أقول:

- أنا مستسلمة لقضاء اللّه، لكني أشتاق إليه، يعذبني فراقه

يقول مؤنبا:

- ألا تدرين أن اللّه أكرم؟؟

يلتف سؤاله حولي، أليس اللّه أكرم، أحس بالحياء، يتابع زوجي حديثه بصوت خافت:

- سنلحق به فلا تحزني، ولنا لقاء معه في الجنة بإذن الرحمن الرحيم

أستسلم لكلماته الحانية، وأعد نفسي بلقاء قريب.

القصة الثامنة

حينما تتكلم المرآة

حينما تتكلم المرآة

وقفت أمام المرآة، كان يوماً مهما في حياتها، فاليوم ستذهب لخطبة فتاة أحلام ولدها الحبيب. يجب أن تكون في أكمل أناقتها، فهي أم العريس، والكل يجمع أنه يشبهها، خاصة لون عينيه وشعره، لم تدخل إلى غرفتها كي تستعد للخروج معه إلا بعد أن اطمأنت على أناقته، وعلى الهدايا التي حرصت على انتقائها بنفسها معه. تداولتها مشاعر متناقضة، شعيرات بيضاء تسللت في غفلة منها، تكشف عن سنوات مضت، منذ مدة لم تترك للمرآة لذة تفحصها، منذ أن أعطت لحياتها معنى، وذاقت حلاوة السعي لتحقيقه، اكتشفت زيف الوقت الذي تقضيه أمامها، فأولتها ظهرها إلا في القليل النادر، وكانت هذه المناسبة من ذلك القليل. كانت تدرك قيمة كل لحظة من لحظات الزمن، ولا تريد تضييعه في التافه من الأعمال، لكنها أحست اليوم أن هذه اللحظات التي تقف فيها بين يدي المرآة مهمة؛ لأنها تريد أن ترى صورة واضحة لمسيرة حياتها.

لم تكن خرجت بعد من دلال الطفولة، حين تسللت كلمات الخطوبة.. الزواج.. كطفلة تفرح بلعبتها أعلنت أنها تقبله زوجاً يملؤها بمشاعر غامضة، فاتنة، يوم الخطبة وقفت أمام مرآتها، تستكشف ذاتها، أنوثتها، ذاك البريق المشع من عينيها، لم تتزحزح من بين يديها إلا بعد أن ضحكت أمها، ودفعتها برفق قائلة:

- كفى، إنك جميلة

ما زالت تذكر تلك اللحظات، وكأنها حاصلة منذ أيام، وليست منذ أزيد من خمس وعشرين سنة، كانت تعيد تمشيط شعرها

حيـن دخل مـع أمه، شاهدتـه من خلف الباب المـوارب يجلس بارتبـاك واضح، وحين وضعت يدها في يده، أحست أنها تسلمه عمرها كله.

دخل زوجها، وجدها ما زالت واقفة أمام المرآة، هتف قائلاً:

- هيـا، ليس مـن عادتك أخذ وقـت طويل من أجـل اللباس، أسرعي سنتأخر عن موعدنا مع الناس.

لـم تلتفـت إليه، كانت غارقـة في ذكرياتهـا، تستعيد تفاصيل عمـر مضى، بأحلامه وآماله، بأحزانه وأفراحه، بفشله ونجاحه، منذ أول يوم عرسها، اكتشفت حدة طباع زوجها، ولصغرها وقلة خبرتهـا في الحياة، لم تستطع فـي البداية أن تملك نفسها أمام انفـلات أعصابه، فبادلته صياحاً بصياح، وكادا يصلان إلى ممر مسدود. جاء أطفالها الأربعة على التوالي كل عام، وكأنها تسابق الزمن، ومع ذلك، كانت المسافة تزداد بينها وبين زوجها، لم يعد هنـاك حـوار أو كلام بينهمـا، سوى الصـراخ أو الطلبات، ورغم شبابهـا وجمالها، كانت تحس أنهما ينفلتـان منها يوماً بعد يوم، كمـا بـدأ الملل يعشعش فـي أرجاء حياتها، ويفـرّخ تصرفات لم تكـن هي نفسها راضية عنها، وأصبحت المرآة ملازمة لها كلما وجدت فرصة للوقوف أمامها لحظات نوم أطفالها أو ذهابهم إلى المدرسة، إلى أن صرخ زوجها في وجهها ذات يوم قائلاً:

- لقد تعبت، تعبت من تفاهتك، من جهلك، تعبت..

كانـت تلك الكلمات بمثابة الشـرارة التي أشعلت وهج السؤال داخل أعماقها.

أعـادت حساباتها مع نفسها، مـع الواقع المحيط بها، وجدت نفسها فعلاً غارقة في مستنقع لا ترى فيه سوى نفسها، وخجلت

ممـا رأت مـن تفاهتها، وفي لحظات تصالحـت فيها مع نفسها، أعلنت عن قرارها المفاجئ بالرجوع إلى مقاعد الدراسة.

سمعت صوت زوجها يقول:

هل ستظلين تحدقين في المرآة طويلاً؟؟

خرجت منها الكلمات بحرارة:

«نعم، كان هذا أفضل قرار أخذته»

ماذا تقولين؟؟

تنبهت لكلامها، ابتسمت، قالت:

- كنت أكلم نفسي

كان انتسابهـا إلى كلية الحقوق مجـال تهكم واستهزاء في كل محيط أهلها ومعارفها، لم تجد من يثق بإصرارها وتحديها سوى زوجهـا، تابع مسيرتها بصبر وثقة، أحرزت النجاح تلو الآخر في مجـال الدراسة، وتفانت في خدمة أطفالها وبيتها دون شكوى أو تذمـر، ومع كل نجاح كانـت تزيد من إثبات ذاتها ووجودها، ليس في حياة زوجها وأولادها فقط، وإنما في المجتمع برمته، وازداد ابتعادهـا عـن مرآتها، كما زاد إحساسهـا بتفاهة اللحظات التي تقضيهـا أمامها، خاصة بعـد نشرها لكتابها الأخير، التي تحكي فيه عن تجربتها في مجال المحاماة.

لكنها تحس اليوم برغبتها في الوقوف بين يديها واكتشاف آثار السنـون عليهـا، بل تريدُ كشف حساب سريع علـى أنوثتها، رأت زوجهـا عبر المرآة متمدداً على الفراش، انتبهت إلى أنه يحدق

فيهــا بإعجاب. ما زالت نظراتــه المعجبة تربكها حتى بعد مرور كل هذه الأعوام، بصخبها وهدوئها.

اندفع ولدها داخل الغرفة:

- ألم تنته بعد يا أمي؟؟

- بلى، انتهيت

وضعــت اللمســات الأخيرة لأناقتها، وتأبطــت ذراع زوجها من اليميــن، وذراع ابنهــا مــن اليســار، وخرجت بينهمــا راضية عن تحقيق جزء من هدف وجودها في هذه الحياة.

٧

القصة التاسعة

ولادة

ولادة

تـذرع الغرفة جيئة وذهابا، يتشنـج وجهها من تقلصات الآلام التـي تجتاحها، آثـار الخوف بادية عليها، لم تـرد أن تذهب إلى المستشفى، وكأنها تريد أن تؤخر ساعة الحسم، تقول:

- لم يحن الوقت بعد.

الأنظـار متعلقة بها، تروح وتأتـي معها، زوجها يسندها، تتعلق بعنقه وتشد، تتأوه بشدة، تسرع أمها إليها، تقول:

- من الأفضل أن تذهبي إلى المستشفى، فالطلقات تقترب

تنتفض ابنتها، تقول:

- لننتظر قليلاً

ترد الأم بحنو:

- من مصلحتك يا ابنتي أن تكوني في المستشفى

تسمـع بكاء ابنها الخافـت، تسرع إليه، كانت موزعة بينه وبين ابنتها المشرفة على الولادة، تحتضنه تهدهده، تهمس في أذنه:

- ما بك يا ولدي؟ هيا حاول أن تنطق، بماذا تشعر؟؟

كان الحـزن يحفُـرُ أخاديد عميقة داخلهـا، تتغلب على ردمها بالصلاة والدعاء.

تذكـر الأيام التي قضتهـا معه في المستشفـى، كانت تقضي الليـل تتناوب هـي ووالده قراءة القـرآن قرب أذنـه، طيلة شهر

تقريبــاً وهو مسجى أمامها فــي غيبوبة، لا أثر للحياة فيه، سوى انتظــام أنفاس قلبــه، انطلقت تنهيــدة منها، تمتمــت «اللهم لك الحمــد» كان بأعوامه الستة ملقى فــوق كتفها كأنه طفل رضيع، ترجع إلى ابنتها، آلام الطلق تزداد حدة، تلتفت إلى صهرها:

- هيا يا بني، لنذهب إلى المستشفى.

سلمت ولدها لابنتها الأخرى، أوصتها به، كانت نظراته مسلطة عليهــا، تريــد أن تقول شيئــاً، لكنه لا يستطيــع أن يصرخ، يتأوه، تذهب به أخته، تحاول أن تلهيه عن غياب أمه.

تخرج مع ابنتها، وتترك قلبها كله مع ابنها الصغير العاجز، كان شعلــة من النشاط والحركة، لا يــكاد يهدأ في مكان، إلا ساعات قليلــة فــي الليل، تمتمــت لا حول ولا قوة إلا بــالله، إن ابنتها هي الأخــرى في حاجــة إليها في هــذه اللحظة الحرجــة من انبثاق الحيــاة، أخذت يدها بين يديها، تشد عليهــا، تنقل إليها بصمت طاقــات واسعة من التحمــل والصبر، حين عاينهــا الطبيب أمر بإدخالهــا فوراً إلــى غرفة العمليات، الظاهــر أن الولادة ستكون صعبــة، دعــت الله مخلصة أن يعين ابنتهــا، ويسلمها لها، فكرت أن هــذا الضعف وتعســر الولادة ربما راجع إلى استنفاد طاقاتها في الحدث الأليم الذي أصاب أخاها، تسطرت الأحداث أمامها كشريط سينمائي..

كان رأسها يؤلمها بعد يوم حافل من التعب، تغذت وتمددت كي ترتــاح قليلاً، ابنتها الحامل متمــددة أمامها، ابنها الكبير يستعد للسفــر إلى المدينة المجــاورة حيث كان يتابع دراسته الجامعية، لم تستطع أن تغفو، كان بالها مشغولاً بولدها الصغير المشاغب، ظــل يقفــز أمامها، لم تدر أنها غفت، لكــن حين انتبهت، لم تجد

ابنهـا إلى جوارها، نـادت عليه، لم يجب، أحسـت بانقباض في صدرهـا «اللهم اجعله خيـراً» بحثت عنه في كل مكان، لم تجده، لـم تظهـر أي قلق بين يـدي ابنتها كي لا تتوتر، صعـد أخوه إلى السطـح، يبحـث عنه، وجد الباب مفتوحـاً، إلا أنه لا أثر لأخيه، هاتفت زوجها تسأله عنه، فربما يكون قد ذهب إليه، لكن لا أثر. طلـب منهـا زوجها ألا تقلق فربما يكون قد خرج للعب مع أطفال الحـي، رغم أنهـا كانت لا تتركه يغيب عن عينيها إلا حين يذهب إلـى المدرسة، خرجت كالمجنونة تبحث، تدعو «اللهم لا أسألك رد القضـاء ولكـن أسألك اللطـف فيه»، الكل يبحـث، لا أثر له، ابنتهـا الحامل تكاد تموت مـن القلق، كان الأصغر، وكان الجميع يحبه، تصعد وتنزل بسرعة، وكأن لا شيء في بطنها، صعد ابنها للمـرة العاشرة إلى السطح يبحـث، كان قلبه يقول له إنه هناك، قفز إلى سطح البيت المجاور المهجور، أطل في القاع، كان بينه وبين السطح أكثر من ستة أو سبعة أمتار، سمعته يصرخ:

- إنه هنا أمي

كان ممدداً وسط البيت، لا يتحرك، أسرع إلى الباب وحطمه، أخـذ أخـاه بين يديه، وسلمه إلى أمـه، كان شاحب الوجه، لا أثر للدمـاء فيه، سوى خدش صغير في جبينـه، وسط صراخ ابنتها وهول الموقف، لم تصرخ، كان قلبها يتقطع ويدعو «اللهم لطفك»، مددتـه على الفراش تنتظر وصول والـده لنقله إلى المستشفى، لـم تترك أي أحد يقترب منه، خشية زعزعة رأسه، وظلت منكبة عليـه، تحتضنـه بعينيهـا وأنفاسهـا، إلـى أن وصل إلـى العناية المركـزة، بعد سلسلة من الفحوصات والأشعة، أجمع الأطباء أن خلايـا في مخه قد ماتت بسبب سقوطـه من على السطح، وأنه سيظـل في غيبوبة إلـى ما شاء الله، كان وقع نتيجة الفحوصات

قاسياً عليها وعلى والده وعلى كل الأسرة، ظلت بين يديه ترعاه، لا تـكاد تفارق عيناها جسده الهامـد، إلا من أنين خافت يطلقه بين الحين والآخر، في الليل كانت تتناوب مع والده الجلوس بين يديه وقراءة ما تيسر من القرآن، وحين تضع جسمها على الفراش لترتـاح، تظـل تتقلـب فيه إلـى أن تسمع أذان الفجـر، لكَم صار الزمـن ثقيلاً تلك الأيام، فمع محاولاتها المتكررة لتسريع إيقاعه بالاستسـلام والانتظـار، إلا أن الأحزان كانت تشده إلى لحظات تهيمـن فيها التوقعات الأليمة، وعلى الرغـم من كل شيء، كانت ثقتهـا في الله كبيـرة واسعة، وكان الدعاء وتـلاوة القرآن يشرح صدرهـا، ويعينها على الصمـود، وبعد شهر كامل، بدأ يستيقظ، بدأت ملامح الحياة تعود إليه، لكن عادت إلى نصفه الأيسر، أما الأيمـن، فظل راكداً، نصحها الأطباء بالخـروج من المستشفى، فلم يعد بأيديهم شيءٌ، في البيت تفرغت له تماماً، وبدأت تدربه من جديـد على استخدام جسده كلـه، والحمد لله، كان يتحسن شيئاً فشيئاً، إلا أنه لم يستطع بعد النطق.

سحبـت نفسها من الذكرى المؤلمة، كان صهرها يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، ملامح القلق والترقب بادية عليه، أصاخت السمع، كان المستشفـى هادئاً، التجأت إلـى الله كما تفعل دائماً، انفتح الباب، خرجت ممرضة تقول:

- «الحمد لله على السلامة، رزقكم الله ببنت مثل القمر»

مـا إن فتحت فمها لترد عليها حتى رن المحمول، كانت ابنتها التي تركتها في البيت، قالت بكلمات متقطعة:

- «أمـي لقد تكلم، نطق، حيـن خرجتم ظل يبكي، كنت أحاول إلهـاءه، كان يشير إلى الباب ويبكي، ويزم فمه، ويبكي ويزم فمه، وفجأة نطق، نطق يا أمي، ها هو اسمعي». جاءها صوته الحبيب،

«مّـا مّا مّـآ»، انهمرت الدموع من عينيهـا شلالات، أخذت تدور على نفسها وتقول:

- الحمد لله لقد نطق، الحمد لله لقد نطق، نطق يا إلهي.

كان كل مـن في المستشفى ينظر إليها بدهشة، يستغربون من هـذه المرأة التي كانـت تظهر الوقار تخرج عن طورها وتتصرف بغرابة، حضنت صهرها بحب، وقالت:

- «سبحـان الله، مـع أول صرخة جديـدة لطفلتنا نطق ابني، أليست هذه رسالة؟؟»

لم يجبها، فقد تعلقت عيناه بطفلته تحضنها أمها، وقال:

«سبحان الله، اللهم لك الحمد».

٧

القصة العاشرة

الكرة

الكرة

-1-

رمى الكــرة عالياً، انحرفت عن مسارها، وسقطت على سطح المنــزل المجــاور، توقف ساهما ينظــر إلى النافذة تــارة، وإلى السطح تارة أخرى.

اشتراهــا لــه أخوه الكبيــر البارحة فقط، أوصــاه بالمحافظة عليهــا، لأنــه كما قــال لن يشتري كــرة كل شهرين. حــاول تسلق النافذة، لم يستطع، أخرج كرسياً وثبته أمامها، كانت المسافة ما تــزال طويلة، بان الحزن على وجهه، تكاد الدموع تفر من عينيه، تذكر قول والده:

- «كن رجلاً ولا تبكِ»

بَلــعَ ريقه بصعوبة، وجلس علــى الكرسي يفكر في ورطته، لما أتى أخوه في الليلِ، وجده جالساً أمام المنزل، وهموم الدنيا على كتفيه، بادره قائلاً:

- «ما بك؟ لم لا تلعب مع أطفال الحي؟»

لمَّا لم يرد عليه، تركَهُ ودخل بعد قليل، أطل عليه قائلاً:

- «هيه، أين الكرة؟»

طأطأ رأسه، تابع أخوه ضاحكاً:

- «انتهينــا من ضوضائهــا ومن ضوضاء شرائهــا مرة أخرى، أليس كذلك؟»

ربت على رأسه بمحبة وقال:

- «اتفقنا إذا ضاعت منك الكرة ألا نشتريها لك إلا إذا وفرت ثمنها، وها هي قد ضاعت، هيا، ادخل واغسل وجهك»

دخل البيت متثاقلاً، كان يفكر في كرته، وفي اللعب، أطفال الحي لا يريدون أن يلعبوا معه إلا إذا أغراهم بشيء، وقد اشترى الكرة خصيصاً كي يلعب معهم هذه العطلة، لكن في اليوم الأول منها ضاعت الكرة. لم يستطع أن يتعشى، أو يشاهد التلفزيون، وانسحب إلى فراشه مبكراً، ولشدة حزنه لم يستطع النوم أيضاً، ظل يتقلب في فراشه، لم يغمض جفنه إلا بعد أن قرر القفز إلى سطح البيت المجاور في الصباح كي يأخذ كرته.

في الصباح، استيقظ باكراً، انتظر خروج والده وأخيه، وطلع إلى سطح بيته، صحبه أحد أطفال الحي، بعد أن حكى له مشكلته. كان السور بين السطحين عالياً، أتيا بسلم، وضعاه بجانب السور، وتسلقاه، قفزا إلى الحافة، تعاونا على قلب السلم إلى الجهة المقابلة، وهبطا إلى أسفل. كانت الكرة ملقاة في ركن قصي، أخذها بفرح، ما كاد يلتقطها بين يديه حتى سمع صراخ صديقه، كان يصرخ بهستيريا ويشير بيده إلى أسفل، نظر بدوره، شرع في صراخ مفاجئ، ثم لم يدريا كيف تسلقا السلم، تركاه وراءهما وقفزا، وصلا إلى المطبخ، تلقتهما أمه متسائلة:

- ما هذا الصراخ؟؟

كانا صفراوين مثل قشرة بطيخ، سقطا أرضاً، الدماء تسيل من ساقيهما، والأم تصرخ:

- «ماذا بكما؟؟؟ أين كنتما؟»

بعـد جهد استطاعت تهدئتهما... لـم تفهم منهما سوى عبارة «جارتنا أصبحت سوداء، وهي مرمية على الأرض»، انتقل الذعر إلـى الأم، أسرعت إلـى الاتصال بزوجها، لـم تمض فترة طويلة حتى جاء مع مجموعة من الشرطة.

اقتحموا المنزل المجاور، كان هيكلاً عظمياً ممدداً على أريكة وسـط الدار، بعد المعاينة، نقلوه إلـى المعمل الجنائي لفحصه، وانتقلت الأسرة إلى مركز الشرطة للتحقيق معها.

-2-

دخلت الأسرة في سين وجيم مع المحققين، كانت الأم لا تكاد تخرج من المنزل إلا إذا كانت هناك حاجة ملحة، فإذا بها تذهب كل يـوم إلى مركز الشرطة مع ولدها مكتشف الجثة، تظل هناك تنتظـر إلى أن يُنادى عليها، فتكرر مـا قالته منذ اليوم الأول، لم تـر شيئاً، لـم تلاحظ شيئـاً، لا تعرف من يسكن هنـاك منذ أن رحلـت جارتهم لتعيش مع ابنها، أما الولد، فيعيد سبب قفزه إلى سطح الجيران،وحين يصل إلى وقت اكتشافه مع صديقه للجثة، يصفر وجهه، وتتلعثم الكلمات في فمه، ولا يكاد ينتهي حتى يبدأ بالبكاء.

لم يستطع أحد أن يلوم الولد على فعلته، لأنه منذ ذلك اليوم وهـو ساهم، منطوٍ على نفسه، عينـاه زائغتان، يطلب من والديه أن ينـام معهما فـي غرفة نومهما. لم يعد يقفـز فوق ظهر أخيه ويتعلق في عنق والده كما اعتاد حين يدخلان معاً، ولم يعد يخرج للعب مع أطفال الحي، حتى إنه أخفى الكرة تحت السرير،انتبهت الأسـرة إلى ضرورة تغيير نمط حياتها، ابتداء من تصرفاتها إلى علاقاتها مع بعضها البعض أو مع جيرانها المحيطين بها. فحاول

الأخ أن يخرج أخاه مما هو فيه، بدأ يصحبه إلى المسجد، ويقضي معــه وقتــاً أطول، كما بدأ والده يروي له قصصاً عن أبطال مروا في التاريخ كانوا يواجهون المخاطر بشجاعة ولا يخافون.

القصة الحادية عشر

لعبة الحياة

لعبة الحياة

لـم أغمض جفني طيلة الليل، اليـوم سأذهب إلى طنجة للقاء الأحبـاب، طول العام وأنـا أمني النفس بلقائهـم، برجوعهم إلى الوطـن، أتصبر علـى فراقهم بالانغماس في العمـل، كنت أرهق نفسـي أحيانـاً، ولاينقذني سـوى ابنتي تضغط علـيَّ كي أرتاح، كنت أعلم أن الراحة تعني التفكير فيهم ليل نهار، في ضحكاتهم المشرقـة، في لمساتهـم الحانية، أحمـد الله أن هيأ لي فرصة الانتقـال إلى مسكن آخر، فما عـدت أطيق الحياة لحظة واحدة فـي البيت القديم، كنـت أعرف أنـي أودع كل ذكرياتي فيه، لكن هـذا الوداع أرحم من أطيافهـم المنتشرة في كل مكان، تناديني، كنـت أكاد أراهم يتحركون في أرجاء البيت، ضحكاتهم الطفولية تتأرجح في كل الأنحاء، تعذبني، تشعرني باليأس والتعب، ارتحت قليـلاً في البيت الجديد، على الأقل لا أرى أطيافهم الحبيبة إلا في داخلي. لكم أشتاق إليهم، إلى ضمهم، إلى التحلق حول مائدة الطعـام كل يـوم، أستمع إلى حواراتهم، إلـى لهوهم، ضحكاتهم، شجاراتهم، رحلوا الواحد بعد الآخر، البنتان مع زوجيهما، والابن للدراسة.

أحاول الوصول إلى المطار متأخرة كي لا أنتظر طويلاً، فأكثر مـا يعذبني الانتظـار، أحس بقلبي يتقطـع كل ثانية، ويكاد يقفز مـن أضلعي، يا إلهي يمر عليَّ العام بحنينـه وعذاباته وأشواقه، وأتحمله، إلا أن هذه اللحظات أكاد لا أتحملها.

أمد رأسي بين الجموع المتراصة، الكل متلهف إلى الانخراط فـي لحظـات اللقـاء الحلوة. لقـاء وعناق وقبـلات، لا يتحملني جسـدي، أكاد أنهـارُ، يقودني زوجي إلى مقعـد لأجلس، ما أكاد

أستقــر فيه حتى أقفز واقفة علــى رجلي، أتطلع إلى باب المرور عساهم يهلون، يهتف بي:

- «ها هم لقد وصلوا، الحمدلله على السلامة»

أحسســت بنفســي خفيفة، أطير، لم أعــد أرى أحداً، أو أحس بأحد سواهم ارتموا في حضني مجددا، تنساب الدموع، تختلط، آخــذ وجه كل واحــد منهم بين يدي، أغوص فيــه، أشعر بروحي ترجع إلي، تتوحد معهم.

انصرمت الأيام بسرعة، كأنهم لم يغيبوا عني لحظة واحدة، لم أكــن أريد التفكير في أنهم سيغادرون من جديد، ليتابعوا حياتهم التــي بدأوها هنــاك، وسيأخذون معهم كل طعــم. وانغمست في اللعــب مع أحفادي، في تدليلهم، في منحهــم بعض ما يفتقدونه منــي، كنــت أحاول أن أتــرك بصمة مني على قلوبهــم الصغيرة، لعلهم لا ينسونني في زحمة البعد.

وككل مرة، أودعهم، وأخرج من المطار، تنساب دموعي بغزارة بعيــداً عنهم، أفقد شهيتي لكل شيء، أغرق في كل عمل يبعدني عن التفكير فيهم، وكل يوم أنتظر خبر لقاء جديد.

القصة الثانية عشر

تعلـم

تعلم

وضعــت يــديّ خلف رأســي، أغمضت عينيّ متأوهــاً، أضعتها بسبــب غلطتي وجفائي، ولهوي أيضاً . رن المحمول، تطلعت إلى الرقــم الذي أضاع قسطاً وافــراً من وقتي. أقر أن غلطتي تكمن في سعة رغباتي، وها أنا مركون في سريري، لا حول لي ولا قوة، مثخن بالجراح، تئن عذاباتي أكثر مما تئن جراحي، كنت بحاجة إلى شجاعة أكبر كي أتحمل معاول أفكاري، كما كنت بحاجة إلى وقت أكثر أتجاوز فيه عجزي، لم أدرِ أنني غفوت حتى استيقظت فزعاً على صوت المحمول قالت:

- «كيف حالك الليلة؟»

غمغمت:

- «كما تركتني»

سمعْتُ تنهيدتَها، كادت تحرق أذني، قالت:

- «أتمنى لك الصحة العاجلة»

أحسســت من كلامها كأنها تودعني، لم أنتبــه إلى أنها أقفلت الخــط حتــى تيبست يدي مــن الألم، كنت قــد تقدمت لخطبتها بعد أن لفتت نظري برقتها وثقافتها، كنت دائماً أتوق إلى الزواج مــن امرأة مثقفة، تفهم الحياة مــن حولها، وتتجاوز عن كثير من الأمور التــي تكشف عن انخراطها في حيــاة العصر ومتطلباته، دون أن تفرض عليّ أي حصار، فقد ضقت ذرعاً بالحصار الذي كانــت تفرضــه أمي على أبي، إلى أن هجرنــا، ولم نعد نسمع أي

أخبـار عنـه. كنت قد جنيت مالاً وفيراً من تجارتي، بعد أن ذقت جميـع ألوان الكفاح والجري، والمرمطـة في الشوارع، والتشرد، عبرهـا، حرمت نفسـي من كل المتع، كنت أضـع القرش بجانب القرش، حتـى أيقنت أننـي أصبحت مالـكاً لثـروة لا بأس بها، تجعلنـي أعيش سلطـان زماني، حين تقدمت إليهـا، وافقتْ بعد سلسلـة من اللقاءات، أعلنت بعدهـا أنها ترضى بي زوجاً، لكنها وضعـت حدوداً بيني وبينها، بـل قالت بصراحة إنها لن تسلم لي جسدهـا إلا بعد الـزواج، رغم ضيقي من عقليتهـا الرجعية، إلا أنـي استسلمـت، ممنياً نفسـي بالتمتع ولو بعد حيـن، إلا أن ما كان يغيظنـي هو تأجيلها لتحديد موعـد الزواج، بحجة التعارف والتفاهم أكثر.

كنا قـد حددنا موعداً للزواج، حيـن التقيت بأحلام، انجرفت معهـا في علاقـة صاخبة دون أن أشعر بـأي تورط، عشت معها في بيتها المطل على الحديقة العمومية التي كثيراً ما نمت فيها، ومنذ أن وطئت قدمي البيت، والنوافذ مغلقة.

كنـت أعتقد أنهـا مطلقة، أو أرملة، الحقيقـة أنني لم أسألها، فمـا كان يعنيني هو التمتع بفتنتها الجارفة، حتى اللحظات التي كنـت أفترق عنها في عملـي أو في زيارة خطيبتي، كانت تناديني عبـر المحمول، وندخل في حوار حار تشتعل فيه الرغبة باللقاء. كنت أشعر أنها تجذبني نحو قاع لا قرار له، خاصة بعد كل مبلغ أسحبـه لها من البنك، لكن مـع تدليلي، والكلام الحلو الذي كان يخلـب لبي، ومع أسلحة أنوثتها الفتاكة التي كانت تشهرها أمام رغباتـي كل ليلـة، لم أتوقف مطلقـاً كي أتساءل، مجـرد تساؤل لـم يخطر ببالي، إلى أن بدأت أشعـر بالتعب، ظننته تعباً عابراً، وحين كشفت عند الطبيب، صدمتني الحقيقة، إني مريض بمرض

تناسلي معدٍ، حتى تلك الحظة، لم أعرف أن أحلام هي السبب، بل جلست معها أحكي عن مرضي، وأتذكر نساء عابرات مررن في حياتي، وأني سأحرم نفسي منها كي لا تصاب بالعدوى.

حرصتْ تلك الليلة أن تشهر أسلحتها الفتاكة أمام عيني، وقّعت لها شيكاً على بياض، واندمجنا في رغبات عاتية. حين فطنت، عنفت نفسي، لكن ضحكاتها المستهزئة أدخلت الشك في قلبي. بدأت تتهرب مني دون أدنى اعتبار لأي شيء، استرجعت تفاصيل علاقتي بها، أدركت أنها هي التي نقلت العدوى إليّ، حاولت أن أنتقم منها، أسترجع مالي الذي أهدرته في لحظات ضعف وكفر.

راقبتها، وجدت أصنافاً من الرجال تدخل وتخرج، أنّبتُ نفسي، كيف لم أفطن إلى انحطاطها وضاعتها، ترقبت فرصة لأجدها وحدها واقتحمت عليها البيت. حاولت أن تغريني من جديد، كدت أضعف، لكن تذكرت مرضي، وأني وإن ضعفت لن أقدر عليها، استجمعت كل قوتي وحاصرتها، بالرقة، بالقوة، لكن كل أنواع الحصار لم تُجْدِ معها نفعاً كي أسترجع ولو جزءاً بسيطاً من ثروتي، كانت تراقبني ببرودة، حين طال الوقت، قالت:

- «البيت أمامك، فتش فيه كما تريد، لن تجد فيه شيئاً»

كالمجنون فتشت كل ركن، كل الأدراج، لم أجد سوى إسورة وبضع خواتم.. أخذتها، ودفعتها حتى كادت تقع وخرجت.

كنت أتابع الدواء، وأزور خطيبتي بانتظام، بدأت أقنعها بالخروج معي أحياناً، أحسست أنني أقترب منها رغم المسافات التي تبعد كل عقلية عن الأخرى.

وفــي إحدى المساءات القريبــة، لما كنت أتجول مع خطيبتي، اعترض طريقي شخصان لا أعرفهما، أشبعاني ضرباً تحت عيني خطيبتــي، وأعين المارة وصراخهم، لما انتهيا مني، كنت متكوماً علــى الأرض كخرقة بالية، وقبل أن أغيــب عن الوعي، شاهدت رجلين تقتربان مني، تركلاني، وصوت أحلام يقول بتشف:

«لتتعلــم مرة أخرى ألا تلتفت إلى الــوراء، ولتعلم أنني لا أُرجع شيئاً أخذته أبداً مهما كانت الظروف»

حين استيقظت من غيبوبتي كان الندم يلفني، وكانت خطيبتي بعيــدة المنــال.. هي توغــل في صفائهــا.. وأنا غير قــادر على الخــروج من حفــرة أمعنت في حفرهــا بانجذابي نحــو نداءات الحمأ المسنون بداخلي في لحظات ضعفي.

٧

القصة الثالثة عشر

الوظيفة

الوظيفة

جلست على قارعة الطريق، منهكة، لم تعد تهتم بنظرات المارة، فللمرة الثانية من كل عام وهي ترسب في الامتحانات الشفوية، فبعد الانتقاء حسب النقط، تتقدم للمباراة في كل مرة تنجح في الامتحانات الكتابية، لكن بقدرة قادر لا تستطيع العبور إلى النجاح النهائي، يقال إن هناك اعتبارات خاصة لا تستطيع سبر أسرارها، فكرت بتأمل: «لكنني أستطيع، إلا أنها أسرار مخزية لن أسامح نفسي إذا ملكتها»، وهذه هي المرة الثالثة التي يلح عليها زوجها من أجل المشاركة في المباراة، وانتظار النجاح والرزق من الله.

تسافر من مدينتها إلى مدينة أخرى، تترك طفلتيها لأمها، بكاؤهما لحظة توديعهما يحيل قلبها مزقاً، يسافر معها زوجها، فمنذ أن تزوجا وهما يعيشان في حالة طوارئ، كانت تنهي دراستها الجامعية في مدينتها حين تقدم لخطبتها، منذ اللحظة الأولى التي التقته عرفت أنه سيسكن قلبها متربعاً، وأنه يحقق الحديث «فزوجوه، إن لم تفعلوا تكن فتنة وفساد كبير». تزوجا وسافرت معه إلى بلدة مجاورة.

بعد انقضاء الصيف، رجعت إلى منزل والديها لتتابع دراستها، ورغم أنه كان يشعرها دائماً بحاجته إليها، ورغبته في الاستقرار معها في منزلهما، إلا أنه لم يكن يتذمر من افتراقها عنه، بل كان يشجعها، وخاصة أنها دائماً تنجح بتفوق ويقول لها:

- إن العلم فريضة، وما دمنا نستطيع تحصيله فإنَّ علينا أن نصبر.

حين ازدادت ابنتهمــا الأولى، أحسا بالتعب أكثر، وبوطأة عدم الاستقــرار تجثــم على صدريهمــا، لكنهما تحمــلا بصبر، إلا أن بعض الفقاعات أصبحت تطفو على السطح أحياناً، ولمَّا ازدادت الابنــة الثانية، كادا يفقدان السيطرة على حياتهما، لكنها توجت هــذه المرحلة بتخرجهــا بامتياز، فذابــت كل الفقاعات، وتمكنا مــن إدارة دفة الحياة بينهمــا. وأكثر ما كان ينغص عليها حياتها، الانتظــار الممل لمباراة أو فرصة عمل حتــى لا تُهدر إمكانياتها المعرفيــة، وتثبت فيه جدارتهــا ووجودها، وتساعد على تخفيف قســوة الزمن مادياً، لكن هذه هي المــرة الثالثة التي تتقدم فيها للمبــاراة نفسهــا، وككل مرة نجحت في الكتابــي وها هي تنتظر الشفوي، قالت لزوجها بيأس:

- «الأفضــل أن نرجع، لا أرى أي فائدة في الانتظار، فالنتيجة واحدة، بالإضافة إلى أنني اشتقت إلى الطفلتين».

ضغط على يدها بحنان وقال:

- «إن في الاستسلام هزيمة، وفي الصمود والإلحاح فوزاً عظيماً»

قالت:

- «أنت من تقول ذلك؟؟ وإلى متى؟ لقد تعبت»

قال:

- «هيا، لا ييأس من روح الله إلا القوم... أليس كذلك؟»

تريد أن تطير إلى طفلتيها، تحضنهما، تمحي في دفء قبلاتهما صقيع الإحباط واليأس. نهضت بتثاقل، يممت شطر المؤسسة التــي ستُعلق فيها النتائج النهائية. أكــوام من الطلبة والطالبات، متناثرة في المكان، تعلن أن الحياة اعتل نسيجها، قالت بحزن:

- «إلى أي حد الإنسان رخيص في بلادي»

٧

القصة الرابعة عشر

تمـــاس

تماس

يئن البياض من آلام الجراح، ومن انسكاب السواد في شقوقه الغامضة، فأحتاج إلى أنوار وأسماء وأوتار، تفتضّ سهاد الوجود، تتخطى أسوار الابتذال والضياع.

أقلّب كتبي، أوراقي، كلمات منثورة هنا وهناك، تتسلل منها معانٍ ودلالات تمارس غوايتها على قلبي وعقلي، وعلى جسدي أيضاً، أتشظى برائحة الكلمات، ألملم وجودي، أسئلة مشاغبة تصّاعد من عمق كآبتي، تماس بين بياض الصفحات وسواد القلم، تنبثق شرارات، تنزلق فوق المجازات المتدافعة. يضج الواقع بصرخات تشق الفؤاد، يجثم على أنفاسي، يزاحم اقتناعي، يستحضر ألغاماً تفترش دروب مساراتي. تحاول إقبار شرعية شامخة، أحتمي بلحظات العشق المعرفي، بالتشكلات الجمالية، تطل معاني الحياة، الصمت المصاحب في كل جلساتي، يتحلل، يتحول إلى ذرات تتجمع، تتشكل عبارات صاحية تنتظر الخطوات القادمة.

ترتع داخل أعماقي حيوات أخريات، أرهف السمع لنبضاتها، لإيقاعها اليومي، أوشك على الوصول إلى أسئلتها الشاردة في دهاليزي، ينبثق صوت عن متاهات متراصة يهتف بي:

- «اكتبي حكاية عن ساكن الجب، ذاك الذي يخفي بين فكي ثعبان سؤاله، وتحت جلده يخفي ظلال صحو منهمر من شلالات صافية، ويخشى أن يسافر عبر جناح أشعة انهمرت من أسرار الحروف وأحلام الكلمات.. اكتبي، عساك أن تستطيعي فك قيوده، عساك أن تحركي رتابة أوهامه.. اكتبي واطرزي وشاحاً بلورياً، تطل منه كائنات ممزوجة بشدة الجذور ورحمتها».

أمتطي صهيل البوح، أسافر نحو انبثاق سرمدي، أتزود بالنقاء والصفـاء، ثـم أرجع إلى قواعـدي غانمة بوعد مشـرق، فأشرع فسحة جديدة للغوايات، وأغوص في تماسّ البياض مع السواد .

٧

القصة الخامسة عشر

وصلة الخبز

وصلة الخبز

كانت تحمل على كتفيها سنينها التي ما فتئت تتجه بها باندفاع نحـو عالم ملـيء بأحاسيس شتـى. جميلة، غامضـة، متناقضة وحزينـة. في يدها وصلة الخبز، وعلـى رأسها خرقة بالية تضم شعرهـا الكستانـي الناعم، خصلـة نافرة تنساب فـوق جبينها، تضعهـا خلف أذنها بعنف وقلق. يتراءى لها الفرن بعيداً في آخر الدرب، صامتاً مثل مغارة عميقة. كانت دائماً تعتقد أنها إن دخلت إلى قلبها سوف تجد طريقها إلى البحر، يتمدد إلى ما لا نهاية، يبتدئ بقطرات جارية من وجه الفرّان وجسمه لترتقي عبر النار المتأججـة، وتنطلق إلى فضاءات البحر الرحبة، تغتسل مما علق بها من ملح أجاج، فما بال هذه المغارة الآن تطل على الموت؟؟

خطواتهـا تزداد تباطؤاً كلمـا غاصت في الأتربة الطينية التي تزيـن الـدرب. تعالـى صفيـر خلف عتمـة القوس الممتد فوق رأسهـا، جفلـت، ارتجفت الوصلـة بين يديهـا، شاهدت بطرف عينيهـا مجموعة مـن صبيان الحـي يلتفون حـول كشك صغير للحلـوى وأشيـاء أخرى لا تعرفهـا. منذ مدة طويلـة حرم عليها أخوها الاقتراب منهم قائلاً: إنهم فتية فاسدون ويبيعون الحرام، لـم تعد تجرؤ على التلكؤ أمام الكشك، تنظر بشغف إلى أصناف ليست قليلة من الحلوى، والصبية الذين كانوا لايثيرون اهتمامها، أو كانت تدخل مع بعضهم - في أغلب الأحيان - في مشاجرات طفوليـة تتطـور بسرعة لتصل إلـى شجار عنيف بيـن أمهاتهم، هـؤلاء الصبية أصبحت تضطرب وتقلق كلما مرت بهم، وأحست بنظراتهم وتعليقاتهم.

زادت خطواتهـا اتساعـاً، لمحـت صديـق أخيهـا متكئاً على الحائـط مطرق الرأس. تـراءت لها صورة أخيهـا متوسطاً شلة

أصحابــه القاطنين في الحومة، أو فــي الأحياء المجاورة، تحت إبطــه كتابه الــذي كان لا يُرى من دونه، وهــو يتحدث باستغراق وحماســ، يتمايــل في نشوة كلمــا تركزت حوله العيــون، وأصبح الصمــت سيــد المكان، فيــزداد صوته انخفاضــاً وسكينة. تكاد تلمحــه يلتفت إليها، يقطــع حديثه بسرعة ويتجــه نحوها ناهراً إياها بحب:

- «ألــم أقل لــك إنك أصبحــت كبيرة على حمــل الوصلة إلى الفــرن؟ لــي كلام قاس مع ذلك الولــد التافه الــذي يترك أخته الأكبر تحمل الخبز».

وتتوحــد معه في حالته التي يكون عليها فتحس بتلك السكينة والأمــان التــي تشع منه تتغلغل داخلهــا ، تتسع وتكبر، تتمدد في عمرهــا، تعلقت في عنقــه من خلف منذ أكثر مــن أربع سنوات، يــوم زفّ خبر حصوله على الإجــازة إلى والدته، كانت معها على السطح تساعدها في نشر الغسيل حين أطل بصمت واحتضنهما قائلاً:

- «ادعي لي يا أمي أن أجد عملاً مناسباً لتطلعاتي»

بدأ سيل من الدعاء ينساب منها بين بكائها وشهيقها، سمعته يهتف بحنان:

- «أتبكيــن حتى في الفرح يا أمي، دعيني يا أمي أستحم فيها عساني أتخلص من خوفي»

تهتف بحرقة:

- «ربنا يسهل لك يا ولدي».

لـم تدر أنها ظلت متسمـرة أمام صاحب أخيهـا حتى سمعته يناديها بحزن:

- «ما لك؟»

لـم تستطـع قدماها أن تخطـوا خطوة واحـدة، كانت الذكرى تتساقـط عليهـا، تتجاذبهـا كلما مرت مـن الـدرب، تتركها في المنـزل جاثمـة فـي كل ركـن، مخيمة فـوق رأسـ والديها، في أعماقهـا، ها هي تلتقيهـا في الدرب، تحاصرهـا، تدير رأسها، كانـت فـي أغلب الأحيان تراه يتفرد بالحديـث مع أصحابه وهم يستمعون باهتمام، لم تكن تدري سر الانجذاب في كلامه، سواء في المنزل أم في الخارج. ما كانت تدريه ومتأكدة منه أنها تحبه كثيراً، فقد كان يفتح أمامها عوالم تكاد تعيش فيها، وتنغمس مع شخصياتهـا، يبذر فـي أعماقها اقتناعات تنمو ببـطء وإصرار، تتشـكل منها أحوال تشعرهـا بالقلق والتوتر والخـوف، وأحياناً تنقلـب إلـى مقامات عالية تسمـو بها. كانت تتطلـع بشغف إلى طيفـور العشاء، تنهـي صنع الشاي باللويزة التـي يحبها بسرعة وتجلسـ قبالتـه تنتظر اجتمـاع الجميـع قبـل أن يسترسل بهم الحديث إلى جوانـب شتى تفهمها أحياناً، وأحياناً أخرى لا تكاد تفهمهـا، وبخاصـة حين يدخـل في نقاش طويل مـع والده حول فلسطيـن والاحتـلال والدمـاء التي تجري كل يـوم دون أن تجد مـن ينتصر لها. كانت أصواتهما تحتدّ وتكتسي طابعاً حزيناً إلى أن ينتهـي به الحديـث إلى رواية قصة من قصص الأبطال الذين استطاعـوا تغيير التاريخ وتحريـر البلاد عبر بحر متلاطم تمتد أمواجه صخباً وهدوءاً، رذاذها يلامس اليابسة يرطب ما تشقق، ويصـد أفواج المحتلين. معظم القصـص كما كان يقول حقيقية تتلألأ في تاريخ الأمة، أو تنساب من فم والده طرية وهو يتحدث

عن مرحلة المقاومة ضد الاحتلال. تذكرت أنهم كانوا يلتقطونها بلهفة تشعرها بمشاعر غامضة من الفرحة والاعتزاز. كانت هذه المشاعر تكاد تجعلها تثور على عمرها الصغير ببطء وملل في انتظار شيء لا تدريه قد يأتي، وخاصة حين يعيد أخوها صياغة ما يتلقفه من والده من حكايات المقاومة والبحث عن إثبات الوجود في العالم ويقرؤها عليها، وكثيراً ما كانت توقف اندفاعه في القراءة لتسأله عن أشياء عدة لا تفهمها، لم يكن يغضب أو يثور كما يفعل بعض أساتذتها في الإعدادية حين تسألهم عما يغمض عليها من دروس، وإنما يعيد القراءة شارحاً كل ما لم تكن تفهمه بهدوء يتسلل إلى أعماقها، يشعل فيها أسئلة شاسعة تطل على بحور متلاطمة. انتبهت من ذكرياتها على صوت ملح:

- «ألم يكن يمنعك من الذهاب إلى الفرن؟؟ فعلاً لقد كبرت»

طأطأت رأسها لمسح الدموع التي أغرقت وجنتيها. حين رفعته، وجدته منتصباً أمامها، لا.. ليس هو، بلى، لايمكن أن يكون البحر قد ابتلعه بهذه البساطة، إنه يفكر كثيراً في كل خطوة قبل أن يخطوها. كانت تحس في أيامه الأخيرة أنه يخفي شيئاً عنهم، كثيراً ما كانت تضبطه ساهماً شارداً، كتفاه متهدلتان كأن هموم الدنيا فوقها، إلى أن فجّر يوماً قرار سفره إلى الضفة الأخرى. بكت والدته، ظل والده صامتاً، لكنها كانت فرحة تتطلع إلى يوم يمكن أن تلحق به، فيشاهدان آثار أجدادهما، كان يقول لها دائماً:

- «لقد أخذتْ عيناكِ لون الأندلس»

ويضيف ضاحكاً:

- ولونُ شعركِ يشبه لون اعتماد ...

سلمـت صديقه وصلة الخبـز بعد أن أحست بكتفيها تتصلبان مـن الألم، انتقل الألم إلى صدرها وقلبها، انتشر في كل جسمها يتصـارع معهـا. سـارت أمامه بخطـى مرتعشة، هـل حقاً غرق فـي البحر مع غيره من المهاجريـن، وأصبحت الآمال والأحلام لقمة للسمـك؟؟ هل انتهى بالفعل والقوة؟؟ تصلبت خطواتها، ثم اندفعت عائدة إلى البيت.. لا لم ينته بعد.. قالت بصوت يرتجف انفعالاً:

- «أمي لن أذهب بعد اليوم إلى الفرن، إنه طريق محدود»

تعالى الطنين، أحست برأسها يدور، أضافت:

- «لـن أستسلـم لأجراس الهزيمة، وسـوف أسلم مهمة الفرن لأخيٍ الأصغر كـي يغتسل أيضاً بقطرات العرق الجارف للزيف، فعـلا لقـد كبرت ولن تستطيـع أشباح البـلادة التخييم في بحر مداركي أو سد منافذ انطلاقي».

انغمست في مشاعرها المتباينة تغترف من كتب أخيها وأوراقه الخاصة، ولم تسمع والدتها وهي تنتحب في صمت.

القصة السادسة عشر

حكاية عُمْر

كان العمــر يتســرب مني عبر متاهات الحصــار، حصار لفَّني منــذ الليلة الأولى التــي وضعت رجلي فيما يسميه البعض قفص الزواج. أحاول أن أفر منه، لكنه مضروب حوالي بإحكام. كل مرة يتفتــق خيالي عن زوغــان، تستقبلني زوجتــي بأسارير منفرجة، تطلــق ذبذبات تنفــذ عبرها إلى أقصى تلافيــف رأسي، فينقلب الخيــال حسيراً، وأعود أمــرغ قلبي في عتبات رِضاها، وأصطنع نجوماً على مقاس حنانها ورقتها، وبراءتها أيضاً.

دلفت إلى المنزل، الصمت يلفه بوحشة غريبة. حفظت تضاريس كل ركن فيه، ودخلت معه في ألفة جميلة منذ أن ملأته بأنفاسها ورائحتها. أجر نفسي عبر الممر لأصل إلى غرفة نومي. بدا لي طويلاً لا ينتهي، أبصرت في المرآة جسداً منهوكاً، تهدلت كتفاه، وجــف عــوده، وانطفأ بريق الحياة من عينيــه. رن الهاتف، ابنتي علــى الطرف الآخر تطمئن على وصولي بالسلامة. حين وصلني صوتهــا انتعشـــت قليلاً، كانــت بَلْسَماً شفافاً ألملــم به انسكابي علــى أدراج الحيــاة، وكانــت حفيدتــي تنعش روحــي بضحكاتها ومداعباتهــا، لكني لم أكن أريد أن أثقــل عليها بوجودي، وأكتفي بزيارة أسبوعية أتزود منها ما يعينني على تحمل الأسبوع الآتي. ظللــت أجر نفسي وســط المنزل، أقتل زمناً يطــول حتى يصبح ثعباناً يخنقني.

تمــددت في الفراش، ما زال الطيــف الحبيب يلازمه، يخفف من قسوة الوحدة فيه.

أطفــأت النــور استسلمــت لاستجــلاب غوايــة الانفــلات من الحصــار، نظمت كلمات وأحداثاً، مددت يدي، ارتطمت بالفراغ،

لم تكن موجودة للنفاذ إلى تلافيف رأسي، ولفّي في بوتقة الحب والمودة والحنان، وصَرْفي عن غوايات تعبر رأسي. أتتني كلمات ابنتي:

- «من غير المناسب أن تظل وحدك يا أبي، الوحدانية لم تُعط إلا للحق سبحانه، تزوج امرأة تخفف عنك وحدتك، وترعاك، وتعينك على مواصلة الطريق، أعرف أنها مسألة صعبة عليك وعلينا جميعاً أن نرى امرأة أخرى تحل محل أمي رحمها الله، لكن هذا قدر الله، ولا بد للحياة أن تستمر».

لم تستطعِ يومئذ أن تنهي كلامها، وانهمرت دموعها التي تحاول دائماً أن تحجبها عني كي لا تزيد من عذاباتي كلما أتينا على ذكر أمها المرحومة، ولم ألتفت إلى كلماتها، لأني كنت مكتفياً بصحبة طيف أمها، لكن ما بالها الآن تلح عليّ، تغويني كي أحاول ولوج عمر آخر، أبحث فيه عمن تدكّ أسوار الصمت، عمن تهتك حجب الظلام، وتبدّد بألفتها وحشة المكان، عمن ترش حقول ذاتي بالندى لتعود إليها نضارتها، وتطلق ذبذباتها في أعماقي حتى أتمرغ في حنانها ورقتها. فطنت إلى أنني أكلم نفسي، صرخت عسى أن يسمعني أحد ويخرجني من متاهاتي وضياعي، لم يسمعني أحد. لا أدري كم غفوت، إلا أني رأيتها في لباس أبيض تجلس وسط حديقة غناء ملأى بكل أصناف الأشجار وأنواع الزهور والورود تقرأ القرآن بترتيل رائع، يتلألأ وجهها نوراً وضياء، تفتح ذراعيها وتدعوني لأغفو في أحضانها كما كنت منذ ثلاثين سنة.

فتحت عيني، رائحة زكية تملأ المكان، وصدى الترتيل فراشات تحوم حولي، تراءى وجهها الحبيب في الظلام كإشراقة شمس في صباح شتوي. سمعت أذان الفجر، رددت خلفه ما سمعته،

وألجـأت وجهي إلى اللّٰه ودعوت، أحسست بانشراح في صدري، أدركـت كَمْ كنت مغفلاً حين غابت عني نعمة اللجوء إلى اللّٰه كما كنــت أفعل حين يدلهم خطــب حياتي. قمت وتوضأت، وانغمست فــي الصلاة لأنطلق بعدها إلى العمــل، وأسترجع حقيقة مهمتي في الحياة.

١٧

القصة السابعة عشر

أغصان السكن

أغصان السكن

نبتت رتابة قاسية في شقوق حياتها اليومية، تطاولت أغصانها الصفـراء حول لحظاتها الحميمية مع زوجها. انزوت أنوثتها في ركـن قصـي، تجتر وعوداً تبخـرت في فضاءات العمـل الإداري والمطبخ ومشاكل الأولاد. جـاءت إليه ملتحفة براءتها وطهرها، بعـد أن اختارهـا من بين عشرات من الفتيـات اللاتي رشحتهن والدتـه للزواج به. أمضيا فتـرة الخطوبة يتعرفان على بعضهما، جرفهمـا الحب بأشواقه ولوعاته. لـم تعد تطيق فراقه، ولم يعد يجد نفسه إلا في وجودها. مضت الأيام بينهما هادئة، فقد كانت تعـرف كيف تمتص حدته المتزايـدة، وغضبه الذي يتناثر لأدنى سبـب، لأنها اعتـادت عليه، ولم تفطن إلى النبتـة القاسية تهدد أغصـان سكنها إلا بعد أن خلا المنزل مـن أبنائهما، حين تأبط كل واحد منهم شريكه، وحلق بعيداً عن حضنهما. ولما رغبت في الخلـود إلى قوة حضوره مرة أخـرى، تفاجأت باتساع المسافات بينهما.

تمد يدها نحو الكأس، ترتشف الشاي المنعنع الذي أعدته، كما العـادة، بنفسها، كان يرنو إليها بابتسامة محببة تعرفها، وطالما أشعلـت الدفء في قلبها، تسمرت عينـاه في عينيها العسليتين، قال:

- «غريبة، ليس من عادتك الاسترخاء في هذا الوقت»

أجابت:

- «الحقيقة أنني تعتب»

قال بقلق:

- «ما بك؟ بماذا تشعرين؟»

قالت ببطء:

- «لا شيء، رأيت اليوم أن آخذ إجازة بضع ساعات، أسترخي، أمنح جسدي قليلاً من الراحة، قليلاً من الخمول اللذيذ، لا أنظف، لا أغسل، لا أنفض السجاد، فقط أطبخ طبخاً خفيفاً، ما رأيك؟»

كان ينظر إليها باستغراب، وكأنها تقول شيئاً غير طبيعي، قال:

- «صدقا، ماذا بك؟؟»

أحست بانتشاء مع تزايد اهتمامه بها. استدعت بقايا دلال ساكن في العمق وقالت:

- «ألا يحق لي أن أرتاح، أن آخذ إجازة، أن أتمدد بين يديك»؟

لم يلتقط خيط التودد الذي رمته مع كلماتها، قال:

- «طبعاً من حقك، لكن خفت أن تكوني متعبة فعلاً»

التفت إلى التلفزيون، أصبح الصمت أفعى تلتف على تقاربهما فتخنقه، تطلعت إليه متهجمة، انهمك في الإصغاء، الأخبار الصباحية تتكرر، قتل، تدمير، حقد، مؤمرات، كراهية، تسلط.. أما آن لهذا الظلام أن ينجلي؟ قامت، جلست، كانت تريد أن تختصر المسافات التي اتسعت بينهما، لم تكن تعرف كيف،

تصيخ السمع لأصوات آتية من خلايا الأفكار، «انحبست أشياء دافئة وناعمة في صدري، أوهمتني أحلامي ألا شيء يمكن أن يطفئ حنينه إليّ، لكن انصرام الزمن أفرز قحطاً مضنياً، ولم يُبق سوى فراشات الشوق تحترق في شراييني»

فطن إلى تغييرها، محاولاتها الدائبة للفت انتباهه إلى حنين متجدد، نكأت جرحاً في صدره، ظن أنه دفنه في قبر اللامبالاة والصمت. تحدث إليها بصمت، فما عاد يبثها ذرة من مشاعره المتدفقة، منذ تأكد أن عواطفها كلها حولتها إلى أولادها، وما بقي منها نثرته في عملها الإداري والبيتي، واكتفى منها بما يفرضه ضغط الجسد:

« في مرافئ عينيك ترسو سفن عشقي، فاردة أشرعتها تجاهك، وأخاف أن يكون الصدأ قد علاها، فلا تسافر من جديد في بحار عطائك».

قامت وأطفأت زر التلفزيون، فقد صممت على استرجاع زوجها إلى دفء حنانها، وتسقي أغصان السكن من جديد، وقد آن الأوان أن تبحث عن مياه عذبة لذلك.

القصة الثامنة عشر

مقلاة السفنج

مقلاة السفنج

نفض الخرقة البالية قبل أن يتابع مسح سيارة فخمة مركونة أمام المركز التجاري للتسوق في مدينته الضبابية، تطاير رذاذ ماء فاحم منها، والتصق بوجهه وعنقه، مختلطاً بحبات العرق، مسحها بظاهر كفه، استحال وجهه لوحة رمادية قاتمة.

جاء صاحب السيارة يجر مشتريات ومأكولات تطعم عشر أسر في شهرين، نهر الطفل الذي لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره:

- «تنح جانباً»

قال الطفل باستجداء:

- «انظر إليها سيدي، نظفتها جيداً»

رد بغلظة:

- «لم أقل لك نظفها، هيا ابتعد»

تابع الطفل مسح زجاج السيارة الأمامي، ركب صاحبها، شغّل المحرك رجع إلى الوراء قليلاً، ثم انطلق. جرى الطفل وراءه بضع خطوات شاتماً، توقف مشيعاً السيارة بنظرات مغبرة. التفت حواليه محاولاً طرد صور زوجة أبيه وأطفالها الثلاثة من ذهنه. لمح سيدة تفرغ مشترياتها في صندوق سيارتها، جرى إليها مسرعاً، أخذ يساعدها، أبعدت يديه بغضب وقالت:

- «من أي داهية تطلعون، ابتعد من أمامي»

مد يده إليها في رجاء:

- أرجوك سيدتي، دعيني أساعدك مقابل أي شيء.

دفعته بحدة:

ارفـع يديك القذرتين، بدلاً من التعرض للناس والتسول منهم، اذهب إلى المدرسة، فهي أنفع لك.

تنحى جانباً، ينظر إليها بغيظ، ركبت سيارتها وانطلقت. تابعها بعينين ساهمتين حتى غابت عن ناظريه، لكن كلماتها ظلت تحوم حواليـه، تخرج له لسانها الطويل، بدت له المُدرِّسة الشابة التي كانـت تُدرسـه مادة الرياضيـات في مدرسته سابقـاً تعنفه على غيابه المستمر:

- «أنت ممتاز في الرياضيات، فلا تضيِّع نفسك»

تعـوّد أن ينجز تمارينه حَال رجوعـه إلى البيت، ولا يرضى أن يخرج إلى الحي ليلعب مع أقرانه، إلا بعد الانتهاء منها، رغم حبه الشديد للعب الكرة.

كان والـده فخوراً باجتهاده، يتباهى بـه أمام كل أصحابه، في البيت وفي المسجد، ويقول له:

- «أريـدك أن تصبـح مهندساً قـدّ الدنيا كي تفـرح أمك في تربتها»،

تمتم بحزن:

- «تبعهـا أيضاً إلى القبر في ليلة شتوية، وانتهى كل شيء، لم يبـق إلا الحسرة والجـوع». كان والده حنوناً، يقوم بتدليله، وكأنه

كان يقـدم له زاداً يستطيع به مواجهة الزمن. لم يكن يفهم سبب كل هذه القسوة التي تصدر عن قلوب الناس، فهو لم يتعود عليها قبـل خروجه إلـى فضاءات ترفضـه بإصرار. كانـت زوجة أبيه تعامله بحب وحنان منذ أن دخلت بيتهم الصغير، كأنه ولدها من صلبهـا، ولولا ذكريات عائمة عن المـرأة التي أورثته لون عينيها العسليتيـن الواسعتيـن، ورحلت لاعتقد أنها أمـه. تحسس جيبه في وجوم، لم يدخل درهم واحد في جيبه هذا الصباح. غرغرت أمعاؤه فهوٍ لم يذق أي طعام منذ ليلة البارحة، حين أعدت زوجة أبيـه براداً من الشاي بـدون نعناع، وألقمته مع إخوته كسرة خبز يابسة، مع بضع حبات من الزيتون الأسود. كانت قد أخبرته أنها تشكو ألماً رهيباً في أمعائها، ولم تذهب إلى البيت الذي تشتغل فيه، لذلك لم يحتج كعادته حين يشرب الشاي أسود بدون نعناع. رأى شاباً صغير السن يمر أمامه، في يده قفة بلاستيكية بيضاء عليها شعار المركـز التجاري، لحق به، سأله عن الساعة بعينين زائغتيـن، أجابـه، وحين ظـل ملتصقاً بكتفه، مد يـده إلى قفته، وأخرج بسكويتاً وقدمه له.

جلس على حجر أمام موقف السيارات يأكل البسكويت ببطء، ويتابع الداخلين والخارجين من المركز التجاري، شرد ذهنه وراء لحظـات قريبـة، كان فيها محـط اهتمام والده ورعايتـه، إلا أن المرض اشتد عليه بعد اليوم المشئوم الذي صدمته شاحنة نقل بضائـع في الشارع المجاور للبيـت، وقبل أن يفارقه، أخذ بكلتا يديه وقال له:

- «إنـك ستكون رجل البيت بعد رحيلي، فاحرص على خالتك وإخوتك».

لما شرع في البكاء قال له:

- «الرجـال لا يبكون يا ولـدي وإنما يواجهون كل شيء، امسح دموعك».

مـع النـداء الأول لأذان الفجـر أسلـم الـروح، وتركـه يصارع أمـواج الحيـاة الغريبة مع امرأة وصبيين وبنت لم تكمل العام من عمرهـا. كان الوقـت ما يزال مبكراً، ولـم يحن بعد موعد ذهابه إلـى دكان السفانج، الـذي لا يفتح بابه إلا في الصباح الباكر، ثم فـي المسـاء. بدل رأيه حيث انتهى من بسكويته وقام، يمم وجهه نحو الأزقة الضيقة المؤدية إلى مكان عمله. كانت زوجة أبيه قد تكلمت مع رب عملها، فأرسلها إلى ذلك الدكان، يساعد في عجن العجيـن الذي يضعه المعلـم السفانجي دوائر فـي مقلاة كبيرة عامـرة بالزيـت لقليـه، ويعينه على جعلها فـي خيط غليظ على شـكل عقد، طوله حسب طلب الزبـون، كل ذلك مقابل دريهمات قليلـة، يقبضهـا كل أسبوع، ويقدمها إلى زوجـة أبيه كلها، عسى أن تساعـد في سد رمق الأفواه الصغيرة العاجزة، التي يرفضها هذا الوضع العاق.

ســار وســط الأزقة الملتوية، كل زقاق يسلمـه إلى آخر، أحس بالإرهـاق والتعـب، ضفـادع وسط زقاق قريب مـن مكان عمله. وقف وظل يراقب مجموعة من النسوة المتحلقات حول الصنبور يثرثـرن، وينتظرن امتلاء سطولهن بالماء، تصدر عنهن همسات وضحـكات وشتائم وحكي قبل أن يفترقن وتذهب كل واحدة إلى سبيلها، تحت إبطيها قنينات، وفي يديها سطلان. تعبت قدماه من وقفته، وملت عيناه من متابعة النسوة، فتابع سيره على مهل إلى أن وصل الـدكان. وجده مفتوحاً، لكن لم يجد المعلم السفانجي وإنما وجد ولده. أسرع يعتذر بارتباك قائلاً:

- «المعلم يقول لي أن آتي بعد هذا الوقت»

أجابه الشاب بفظاظة:

- «الآن أنا هو المعلم، هيا قم بعملك»

صــب الماء فـوق الدقيق الــذي وضعه ولد معلمــه، ورغم أنه كان يشعــر بالتعــب والجوع، إلا أنــه كان يسرع في عمله كي ينال رضــا الشــاب الذي كان جالســاً يشرب عصيــراً، ويقضم حلوى بالشوكولا. كان العرق يتصبب من وجهه، حيث حثه على الإسراع، ثم طلب منه أن يشعل مقلاة الزيت الكبيرة. جاء بكرسي ووضعه أمام المقلاة وأشعلها، لما حميت كان العجين قد اختمر، فصعد علـى الكرســي وبدأ يشكل منه دوائر، ويلقيها في الزيت. لم تكن الدوائر العجينية مسبوكة، لأنها المرة الأولى التي يصنعها فيها، ولمــا لاحظ ولد المعلم ذلك أخذ يشتمه ويصيح، ارتبك الصغير وكاد يسقــط من فـوق الكرسي، وبدون أن يشعــر، تشبث بحافة المقــلاة الحاميــة، فانقلبت علــى جسده الصغيــر، ودون صراخ تمدد على الأرض يسبح في بركة من الزيت الملتهب.

القصة التاسعة عشر

هـــروب

وضعت نظارة سوداء فوق عينيها، أحكمت المنديل حول رأسها محاولـة إخفاء جوانب من وجههـا، وخرجت. يممت شطر منزل مجـاور لبيـت أسرتها، تبتغي أملاً اختفى منـذ السنة الأولى من حياتهـا الزوجية. وجدت قاعة الانتظار مزدحمة، أسندت رأسها إلـى الحائـط، التعب يشحـذ سكاكينه في روحهـا، وينغمس في العمـق. لم تنم الليلة أيضاً، فقد أتـى متأخراً كالعادة، أغلق باب الغرفـة بعنف. تظاهـرت بالنوم، اقترب منهـا، رائحة نتنة تفوح منه، أزاح الغطاء، تكورت بخوف، أطلق ضحكة خشنة، يداه تعبث بها، قاومته، وجهها غارق في التوسلات، غالبت رغبة الاستسلام العارمـة كما تفعل دائمـاً، لكن صفعات متتاليـة أفقدتها القدرة علـى المقاومة، فهمدت حركات جسدهـا، أدارت وجهها بعد أن انهمـرت دموعهـا. موجات مـن البغض والقـوة تجتاحها بعنف، تدمر حلمها بالسكن والمودة. امتص آخر ما لديها من رحيق، أو هكذا يُخيل إليها كل مرة يغتصبها فيها، وأدار ظهره لها. ولم تكد تمر ثلاث دقائق حتى علا شخيره.

تلفتـت حواليها، تعرف معظم المنتظرين، لا شك أن كل واحد منهـم لديـه مشكلة يريد حـلاً لها. كل مكان تحل بـه تشعر كأن الحاضريـن يدركـون مـا تعانيـه على يـد زوجهـا. تزوجته رغم معارضـة والدها، أصرت عليه حتى بعد أن قال لها إنه لَمْ يرتح لـه، ولغـروره، وحديثه المستمـر عن أمواله وأملاكـه، كان يقول لها:

- «أريد لك زوجاً يخشى الله يا ابنتي، وكل ما عدا ذلك لا يهم»

لكنها ضربت بكل نصائح والدها عرض الحائط، وظلت متشبثة بـه، تساعدها في ذلك أمها إلى أن وافق عليه على مضض، بعد

أن تكالبتا عليه، بدأت مشاكلهما في ليلة عرسهما، حين دخل عليها ورائحة الخمر تفوح منه. كان والدها قد أخبرها بحزن أن عريسها مخمور، لكنها قالت له:

- «لا تقلق، ستكون هذه آخر مرة»

لكنها لم تكن كذلك، بل كانت عادة متغلغلة في دمه. عاملها كأنها قطعة أثاث رخيصة، اشتراها للاستعمال كلما اشتهى ذلك، دون مراعاة لمشاعرها. حاولت التقرب منه، ومجاراته في رغباته، لكنه تمادى، وأصبح يطالبها بأشياء شاذة لم تستطع أن تبوح بها حتى لوالدتها.

كان الخدر يصعد إليها من قدميها اللتين انعدم فيهما الإحساس. اشرأبت بعنقها نحو الغرفة التي تجلس فيها من لديها أسرار الحي كله وما وراءه. لم يكن هناك باب، وإنما يوجد مكانه ستار رمادي مسدل يخفي ما بالداخل. أزاحته امرأة وأخرجت فتاة تشبهها، وخرجت وراءها. رمقتها جالسة بتعال في قاع الغرفة، تلبس لباساً أصفر داكناً، وتغطي شعرها بشال برتقالي فاقع، وتضع في يدها مسبحة سوداء. كانت تعرفها جيداً، منذ أن كانتا صغيرتين تذهبان إلى مدرسة واحدة وتصاحب الفتيان لأن الفتيات كن يخفن منها ويتجنبنها. وكثيراً ما كن يحكين حكايات غريبة عن بيتها، وولادتها، وعن قدرة والدتها على السحر والتنجيم. ظلت علاقتهما تشوبها الحذر، خاصة بعد أن أخذت مكان والدتها لما توفيت، وفاقتها في قدرتها على معرفة أسرار الجالس أمامها بأساليب غامضة وملتوية. طالما طلبت منها والدتها الاستعانة بها للاستحواذ على زوجها وتطويعه ليعاملها معاملة طيبة، لكنها كانت ترفض الفكرة وتخاف أن تنتشر سيرة زواجها على الألسن، وهي التي كانت تدير عقول شباب الحي

ورجاله، وتصد كل من تقدم لها منهم، ولم ترض إلا بهذا الغريب الـذي يذيقها الأمرّين. فـرغ مقعد بجوار جـارة والدتها. نادتها لتجلس أمامها. بـدأ سيل من الأسئلة يتدفق من فمها، لماذا...، وكيـف...، وهل...؟؟ كانت تريد أن تنتزع منها سبب وجودها هنا، ولمـا لم تحصل إلا علـى إجابات غامضة مبتسـرة، شرعت في الحديث عن نفسها.

«أرأيـت، إنها عفريتة، تحل كل مشكلـة، تتذكرين الغرفة التي كانت في سطح بيتي، وكنت أكتريها، أردت أن أبيعها، وظلت سنة لايبالي بها أحد، ما إن أعطتني بركتها حتى بعتها، صحيح بعتها بثمـنٍ بخس جداً، لكن أحسن مـن لا شيء، وأنا هنا كي تعطيني شيئـاً يجلـب الحظ والرزق لولدي، فهو منـذ أن فتح الدكان ويد النحـس نازلة عليه، صحيـح أنه يفتح متأخـراً، ويقفل باكراً ولا أعرف أين يذهب طوال الليل إلا أن النحس لا يفارقه حين يفتح، أتعرفين..»

تعالى صوت آخر بجانبها.

لم تستطـع المتابعة، أحست بالتفاهة، تسـاءل عقلها: هل أنا بهذه التفاهـة في رؤية مشكلات الحياة؟؟ هل الحل يكمن هنا؟؟ إدراك خاطـف أضاء لها مساحة فـي بصيرتها، لملمت أفكارها المتناثـرة، هل سأفتح صفحة أشـد فتكاً في حياتي؟ هل لم يبق لي سوى انتظار الريح المحملة بالأوبئة والغبار، تبدد ما بقي من العمر؟؟

ثـم، في لحظةٍ صحو نادرة أغلقت بداخـل كيانها الباب الذي يدلف بها، قِسراً، إلى هذا العالم الغريب، أغلقته بقوة حتى تردد الصدى عنيفاً بداخلها، ثم قررت أن تضع حلاً لهذا الهروب.

٧

القصة العشرون

نوارس اليقين

التقيته حيـن كان مزيج من الشغب والتعـب يلتف حول قلبي، وأنـا ألمس كل يوم التسابـق المحموم نحو إفـراغ الوجدان من نبضـه وروحـه. وجوه وألوان يملؤها سـواد وحزن مثل ليلة غاب فيهـا نور القمر، وتشكيلات خالية من أي موقف إنساني أو رؤية جماليـة تمنح بصيصاً من الأمل أو طعمـاً للوجود، كأنها حالات مـن اللاوعـي تستفز في الإنسـان كل شيء قبيـح. التقيته ذاك الصبـاح الصيفي الساخن. شظايا من حنين تناثرت حولي، حتى كادت الألـوان تفر من اللوحـات. درت في قاعة العرض كالطفل حيـن يتيه عـن حضن أمـه. نظراتي الحائرة تتـوزع في الأرجاء أحاول لملمة أفكاري الشاردة وراء نسائم المواجد، أضغط بكفي علـى حُلمي الذي لـمٍ يَستيقظ بَعد، وأنـا أراقبه وسط مجموعة مـن الشبـاب منهمكاً في حوار تتخلله عذابـات حارقة. بدا كأنه لـن ينهيه حين باغتني بالوقوف إلى جانبـي، وسيل من الكلمات يطوقنـي، يتدفق شلالاً يبعث الحياة في القلـب والروح، أتذوقه كأنه ثمرة من ثمرات الحياة الإيمانية.

يأخذنـي فوق بساط بلّوري إلى شاطـئ البراءة الطفولية، يوم كنت مستلقية بين يدي بحر الفطرة، أنعطف إلى نقطة البدء، كي أعود طفلة مفعمة بالتوثب والانطلاق.

أنغمس في تلك الأجواء الرائعة بكل الأحاسيس التي تعبق بها، بـكل ما فيها من أزهـار وأطيار، من غيوم وأمطار وخلائق تسبح الواحـد القهار، أجـري أجمع الأصداف الملونـة، ألهث، يرشني رذاذ بحـر الفطرة بصفائه، أغمض عيني، تتجمع القطرات فوق شفتـي، أرشفها ببطء، تتسلل دافئة إلى أعماقي، تمتزج بكلماته،

تحـاول إشعـال جمـر الذكرى، لا أتذكـر أي شيء عـن تفاصيل يحكيها بفرشاة تقطر عذوبة ورقة، لكن دفق روحي عميق يلامس الـروح هذا الصباح، يدثرني بحلم غامضـ، مثل رموز أسطورية المعاني والدلالات،

كان يقول:

«ألا تذكريـن تلك القطرات التي مُنِحْتِهـا فطرة وصفاء؟؟ أين هي الآن في هذا الإشعاع المضطرب في اللوحات؟؟»

أردد في همس كأني في حال الكشف:

فكان ما كان مما لست أذكره   فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

وأقول:

«ذاكرتي مثقلة بتاريخ طويل لا يمكن الخروج عن مداره».

يأتيني صوته عميقاً:

– مـا الذكرى سوى نبضة من حريـة تغمر جوانح الروح بعيداً عن طقوس الببغاوات، فتفتح أنوارها وتشرق في مسافات الظلام لتتلألأ طهراً وصفاء»،

– وهـل نملـك فـي هـذا المنعطف المخـزي الحريـة لنكون مستعدين لاستقبال أنوارها؟

وتظل الروح مصاحبة للروح في حديث يزكي عنفوان التئامهما، فقـد كنـت لسبب لم أفهمه إلـى الآن، يُخيل إلي أنـه يبصر أدق خلجاتـي، ينفذ إلى عمـق أفكاري، يلتقط ما بيـن أمواج ألواني،

وأنـه يفهـم مـدى تسليم كياني لهـا، في أفراحـي وأحزاني، في لحظـات الصحو، وفي لحظات الذهول والبوح. أشعر حقيقة أن أبحـري توحدت في بحره العذب، ولا بـد أن تأخذ طعما إيماني التموجات، وأن البحر بالنسبة إليه إن لم يكن مرفأ للروح فليتحول إلى كومة من ملح أجاج. كان يقول لي في رسالته:

«البحر بالنسبة إلي ذاكرة نحو عبور مرافئ الروح، هنا بأرض كاظمـة تطـل شرفة غرفتـي على الخليـج العربـي الممتد مثل فجـر بلوري، وبمدينة الحنيـن و«طيبة»، يطل بيتي على المحيط الأطلسـي كأنه فاتح يقود جيشاً ضـد الظلام، وأنا المسافر من بحر إلى بحر كأني سندباد العصر، أجد مرافئ الروح في البحر، ولكـن لوحاتـك تخلو من البحر فهل صـار، في روحك، كومة من ملح أجاج؟؟

حاولت إيقاظ تلك الذكـرى بالذات، وتلوينها بألوان بنفسجية ووردية، لكنهـا ازدادت نفـوراً وابتعـاداً، ولـم أجـرؤ على طلب تفاصيلهـا منـه، أو الاستفسـار عن خلجاتهـا وتلويناتها، وبدأت أشعـر أكثـر من أي وقت أننـي عاجزة، وأن ذاكرتـي تخونني، لا تستجيب لحلمي، وأنني أعيش خللاً في عمق ذاتي، في أسئلتي، في مضمون وعيي بما يحيط بي.

وتغلفنـي حالات اشتياق وجـوى، وأرتد إلى بحري، أغوص في شجون أمواجه حتـى يبوح بأوغل أسراره التي ظلت راكدة سنين عـددا، استجابت لحظة فاتنة، يومهـا انزويت في غرفة جانبية، أحـاول إنهـاء لوحة أخـذت منـي كل الوقت، كل من فـي البيت مشغـول بشيء ما، جاء يقدم المساعدة كما عهدته دائما، يحمل بصمات متفردة من البهاء، كان هادئاً رزيناً، لا يكاد ينظر إليّ إلا إذا استعجل جواباً ما، أو لامس دلالة نافرة.

وكنت أشعر باشتداد لمعان الخضرة في عيني، وأخشى أن تصيبه منهما شظايا تؤرق روحه وريحانه، وتؤرق السؤال في ذاكرته عن سبب انسياق ريشتي في متاهات اللوحات التي لا تحمل معنى، وعن كيف أسمح لنفسي أن أقابل هذه النعمة الأندلسية بالانسياق خلف بريق الفلسفات الفنية التي تحيل الإبداع ركاماً من الألوان والمتاهات التي تفرغ من المعنى حد الغثيان، فلا أنظر إلا إلى ما بين يدي، ولا أسمع إلا خفقات قلبي المدوية أنغمس في بريق اللوحة بين يدي، لم أكن أعي ما يدور حولي، وما يلقيه إلي من كلمات في توزيع الظلال والألوان والمعاني وعن سر ألوان البحر، كنت فقط أحاول فهم حالات التوحد والانصهار، والولوج إلى روحه المفعمة بعوالم سامية تنفتح على الأنفس والآفاق.

ساد صمت ساحر في المكان، حين كانت روحي تستقبل فيوضات عطائه، مستجيبة لنداءات مشرقة. انتبهت على صوت الأذان وهو يتغلغل نديًّا في أعماقي، يلملم الذرات المبعثرة، يحيلها إلى بلورات شفافة تحتضن كل الوطن. استأذن وخرج مسرعاً ليلحق بالصلاة.. وأدركت أنني سأسافر وحيدة، وأنني ركبت مراكب صعبة، وستفيض أحزان وأشجان وأسقام، قبل أن أدرك منازل الألطاف. ودخلت محاريب الجمال، أسجد في عواطفها المتأججة، كانت الغربة تنسج أوكارها في الفؤاد المحزون، لكن عصافير القلب مولية وجهها إلى سدرة المنتهى، عساني أنسج من أغصانها سترا تحجب عن مولاي وعثاء السفر. احتملت طول الرحلة بكل ما فيها من رواء وجفاف، زادي قطرات ندية من عبق الوحي، وسنبلات خضر، ورفيق يحيطني بأريج فجري اللون، لكنه لم يرتشف أوراد الجوى مثلي. فظللت أغرد وحيدة.

كانت روحه أقرب إلي من أي زهرة رسمتها، أو أي لون كابدته، تسكنني مثل صحوة فجر، وكنت على يقين بأن انعراجي في هذا

السبيل يفضي نحو مراقي الظلال الربانية، لأشرف على أسرار الواحدية ذات التجليات في الأنفس والآفاق، وما كنت أدري أن سحب الشك والخوف قد تجرفني بعيداً عن حضرتها.

أقمت معارض عدة، سكبت في ظلالها توقي إلى الارتقاء عن الطين اللازب، والاحتماء ببرد الإيمان، عساني أصل إلى المراقي والأسرار. وذلك البحر الذي يكون مرفأ للروح. لم ألتق به منذ تلك اللحظة الفاتنة، إلا في لحظات عابرة تشعرني أنه يهرب من شيء لا أدريه. وما كنت أدري أنني سألتقيه في هذا الصباح الصيفي، يعرض علي أن يأخذني في مركبه للوصول إلى ظل قدسي الامتداد.

كان يتكلم بسرعة، كأن الكلمات ستهرب منه، يرجعني إلى لحظته على شاطئ البحر، لكنها تنأى عني وتغيب في دهاليز النسيان، ولا أسترجع سوى لحظتي الفاتنة، أتصفح أوراقها سطراً سطراً، وأقرؤها حرفاً ولوناً وكأني انتظرت العمر كله لأقرأها، لأغوص في تفاصيل حلمها، لأبوح بألم دثر الروح سنوات الجفاء. انتشلني منها، بل انشلني من جنوني، وأخذ يحكي عن امرأة تشبهني، التقاها في غيابه الطويل بين المعارض والمنتديات واللقاءات الشعرية.

كنت في نشوة ولم أع جيداً دلالات كلامه، وكنت أحاول أن أنقل إليه كم كان مغروساً في النفس، وكم تلاقت الروحان في ملكوت ناصع البياض، بالرغم من غياب صورته المادية من ذهني. لكنه كان ينهي حديثه عن المرأة التي تشبهني بأنها انتهت إلى أن ترسو مراكبها على مرفأ الروح، وصار فنها تبتلاً، واحتضاناً لآهات الحيارى والتائهين. لم أجرؤ على الاستفسار عنها، عن سر قطفها لثمار الروح في فؤاده عن لون عينيها اللتين قادتاها

إلــى هــذا النعيم، عن شعرها الــذي ارتقى بكلماتــه نحو هداية أخرجتها من ظلمات التجريب والعبث إلى نور الإبداع الذي يغذي الروح ويمسح عنها صدأ الطين الأرعن، وعن .. وعن.. وعنعنات مؤرقــة، وأدركــت أنه قد يبلغ مقام التوهــج بمراكب أخرى، كنت أحاول أن أجد منفذاً من هذا الحصار وهذا الجنون، لكن الوقت انقض على اللقاء بشفرته الحادة فقطعه، ودعته وخرجت بعد أن تركت نبض القلب متعلقاً بمركبه السابح في بحر الروح.

لفحت وجهي سخونة الجو، وددت احتضان المطر، أو الغوص في بحر لجيّ تعصرني أمواجه، أو التعلق بأطياف وصل يسترخي فــوق حقل من الياسمين، لكني كنت أعــرف أن أماني مقطوعة، تعبث بأشلائها سحب الأحزان، وأن الفراق قدر ليس بالمستطاع تغييــره إلا بشــق الأنفس. واشتعلت الذاكــرة من جديد، ونهضت أحزانــي الهاجعــة مــرة واحــدة، وتجاذبتنــي كالحــات الشكوك والظنــون، ولم تعد تصدر عن ريشتي سوى إيقاعات حزينة كلون الرحيــل رغم محاولاتي المتكررة للخــروج إلى فضاءات جديدة، لكــن اللقاء التالي كان أسرع مما تصورت، لم يكن لقاء عادياً، أو عفويــاً، وإنمــا أتى كأننا خططنا له العمــر كله. فقد كنت مدعوة لافتتــاح معرض جديد، وكانت غواية الألون تسكن دمي، فلم يكن مــن الممكن أن أتخلف عن الحضور، وكنت آمل أن أجده. ذهبت رفقة ابنتي، أحسست أنها تعرفه أكثر مني، قال لها:

«إن والدتــك تكبــر فــي أعماق الــروح دهرا فدهــرا، وصرت أخشــى هل أستطيع فهم دلالات لوحاتها التــي تقول إنها صدى كلماتــي الإيمانية على أهداب ريشتها العطشى وروحها السابحة في ملكوت الإيمان».

قالت باندفاع:

لا تخش إلا إذا استحال الشك خوفاً وصار الوصل طيفاً

رد بابتسامته الهادئة:

- إني أسعى إلى أن أجد لها على النار هدى

قالت:

دائماً أسمع والدتي تقول عنك: «عجلت إليك بالقلب الخافق لعلك ترضى، وتأتيني بما يسكن هذه النفس الحيرى، ويقصي هدير الشك، وأرسو في مرافئ اليقين، وإني أنتظر ولوج سبيلك على أحرّ من الجمر إلى حين القبض على نار الهدى».

قال باطمئنان:

- أريد لها يثرب اليقين، ولا يجوز لريشتها المتميزة أن تأسرها ثقافة الطين اللازب، أو يستغلها سدنة العفن الذي يخلب بصائر الناس.

التحقتُ بهما، سمعتُ ما قال كأنه رحيق تمتصه نحلة عطشى:

- «صارت إشارات واضحة بأنهم سيطردونني من حضرتهم، لأن ريشتي تنادي: «إني أسعى إلى أن أجد على النار هدى»

تساءل في انفعال قوي:

- «أو مخرجوكِ هم؟»

أجبت وقد طأطأت الرأس المثقل بالذكريات:

- نعم

فجاءني كلامه كأنه ومضة نور في جوف الظلام:

- «فيممي وجهك جهة يثرب اليقين...»

تلبستني الحيرة وهتفت:

- وهل أنا في الطريق إليها؟؟

قال:

- «يكفيني الآن أن يكون صدى كلامي يتراقص في روحك ويعانق إصرارك النوراني لأعرف أنك على الطريق».

تركتهما منسجمين في حوار هادئ، ودرت في القاعة، أبحث عن تلاقح جديد للألوان والدلالات، وأنا في غاية الوعي بأن كلماته تنسج داخلي طاقات نورانية هائلة، وسوف يحين أوان إشعاعها قريباً، وفرحت، فرحت لأني أعيش دائماً داخلي مثل طفلة تكتشف الحياة كل مرة، وتعيش الروح تجدداً مستمراً، وقد أخذت منه ما أعاد الروح إلى حضنها النوراني الدافئ.

وكتبت إليه:

- هل من مزيد؟؟

- فأجابني بسؤال محير:

- وما أعجلك نحو خروجك من قبيلة الألوان التائهة في السواد؟ ألا تخافين أن يقولوا عنك صبأت صاحبة الريشة الثائرة؟

فقلت له:

- وماذا عن الاتهام، يكفيني أن روح كلماتك معي، وأينما كنت، فإنــي أجد عصافير من روح أنوارك تعزف إيقاعات هي في لون قوس قزح، تمس حضوري البهي المتجدد بعد الشروع في رحلتي إلــى يثرب اليقين، صدق وصايــاك يختصر الزمن إلى معنى في رحابة الكون، تقول بناتي: إنه القمر يشدك إليه في أعاليه، ويقول زوجي: إنه البحر يسكن هدير صمتكِ ورعشتكِ، لكني أقول: إنه السندبــاد يــزف لي حلماً في شــكل نوارس اليقيــن، ويخبئ في عينــي رياحين السؤال والجواب. وإنــي قد ركبت موج البحر في رحلتي إلى يثرب اليقين، أحمل في قلبي بطاقة سفر إلى مرافئ الــروح، واغتسلت ريشتي من ألوان الزيف والتيه والتشظي.. ولم أعد أجد في نفسي سوى نهر ممتد من فيوض وصاياه، اتخذها مجدافاً لأبلغ مجمع البحرين وسدرة الرشد، وأنغمس في إشراق الهداية، واكتشفت، من خلال إيقاع كلماته وأسراره، ألواناً وأكواناً لم يبلغها بعد إنس ولا جان.

شروط الإسهام في الإصدار الأدبي والفني «إسهام»

- أن يكون للباحث إسهام في ميدان الأدب والفنون

- أن يكون العمل الأدبي في الشعر أو القصة أو الرواية أو المسرح أو الدراسة الأدبية، أو الفنون مثل فن الخط والزخرفة والعمارة وغيرها.

- أن يكون العمل جديدا لم يسبق نشره.

- أن يعالج مضمونه وفق الرؤية الوسطية.

- أن يسهم في التنمية الفنية والجمالية للفرد والمجتمع.

- أن يقدم العمل مطبوعا في ثلاثة نظائر، إضافة إلى قرص مدمج، وأن لا يتجاوز مائتي صفحة، من حجم A4، وبخط Simpliefed Arabic، ذي البنط 16.

- يحق للجنة العلمية أن تقترح على صاحب العمل إدخال التعديلات المناسبة.

- لا تسترد الأعمال غير المنشورة.

- يقدم لصاحب العمل المنشور مكافأة مالية تقديرية.

نهر متعدد.. متجدد

هذا الكتاب

وكتبت إليه:

- هل من مزيد؟؟

فأجابني بسؤال محير:

- وما أعجلك نحو خروجك من قبيلة الألوان التائهة في السواد؟ ألا تخافين أن يقولوا عنك: صبأت صاحبة الريشة الثائرة..

فقلت له:

- وماذا بعد الاتهام؟ يكفيني أن روح كلماتك معي، وأينما كنت، فإني أجد عصافيرمن روح أنوارك تعزف إيقاعات هي في لون قوس قزح، تمس حضوري البهي المتجدد بعد الشروع في رحلتي إلى يثرب اليقين، صدق وصاياك يختصر الزمن إلى معنى في رحابة الكون، تقول بناتي: إنه القمر يشدك إليه في أعاليه، ويقول زوجي: إنه البحر يسكن هدير صمتك ورعشتك، لكني أقول: إنه السندباد يزف لي حلماً في شكل نوارس اليقين، ويخبئ في عيني رياحين السؤال والجواب، وإني قد ركبت موج البحر في رحلتي إلى يثرب اليقين، أحمل في قلبي بطاقة سفر إلى مرافئ الروح، واغتسلت ريشتي من ألوان الزيف والتيه والتشظي... ولم أعد أجد في نفسي سوى امتداد من فيوض وصاياه، اتخذها مجدافاً لأبلغ مجمع البحرين وسدرة الرشد، وأنغمس في إشراق الهداية، وأكتشف، من خلال إيقاع كلماته وأسراره، ألواناً وأكواناً لم يبلغها بعد إنس ولا جان.

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية